بيزنطة

بين الفكر والدين والسياسة

دكتور رافت عبد الحميد

الطبعة الأولى
١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي – اسباتس – الهرم – ج.م.ع – تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

قواعد الدبلوماسية البيزنطية

أمام كل باحث فى التاريخ البيزنطى .. علامة استفهام كبيرة، تقف بارزة بين القرينات...

علامة استفهام فرضتها أحداث التاريخ ..

فعلى امتداد ألف ومائة من السنين ، عاشت الإمبراطورية البيزنطية ، وهى من هذه الناحية فقط ، وبغض النظر عن حضارتها الزاهرة ، التى هذبت بها أخلاق الشعوب القبلية النازحة إلى منطقة البلقان، وهدت بها خطى الحائرين عند الدانوب والبحر الأسود ، إلى الحد الذى يتنافس فيها المتنافسون الآن، من الروس واليونان، يدعى كل منهم أنه الوارث الشرعى لها ، الضمين الحقيقى على تراثها !! نقول .. إنها من ناحية الامتداد الزمنى فقط ، عبر أحد عشر قرنا من الزمان، ما بين الرابع إلى الخامس عشر ، تبز كل لداتها من الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ عبر العصور .

إلا أن هذه القرون الطويلة ، لم تكن نغما موسيقيا حالما، عزفه البيزنطيون على قيثارة السلام ، ليقدموا للعالم فى زمانهم ومن بعد ، حضارة متميزة، بل كان عليهم- كما تقول المؤرخة ج . م . هسى J. M. Hussey فى كتابها «العالم البيزنطى» The Byzantine world أن يواجهوا فى صبيحة كل يوم، بما يحتمه عليهم الموقع الجغرافى ، جيرانا تختلف طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، عما كان عليه البيزنطيون .

كانت الحدود الطويلة للإمبراطورية البيزنطية ، والتى راحت تتآكل مع الزمن بفعل ما يقضمه منها أولئك الجيران ، تفرض عليها مجاورة شعوب لها جذورها الحضارية كالفرس ، أو حضارتها القائمة الراسخة كالمسلمين . وشعوب ضاربة فى التخلف كالقبائل الجرمانية العديدة، والهون والآفار والصقالبة ، والبلغار والمجيار والغز والكومان والبشناق .

كان هناك طامحون .. طامعون فى الوصول إلى مركز الثقل الحضارى آنذاك .. البحر المتوسط ، أولئك هم الفرس ، وآخرون يقاتلون ، فيقتلون ويُقتلون من أجل الاستقرار على الأرض الرومانية ، والتمتع بقطوف خيراتها الدانية ، وأولاء هم الجرمان .

جماعات تطمح إلى القفز على القسطنطينية نفسها ، كالنورمان، وأخرى يأكل الحقد قلبها وتود إسقاط الإمبراطورية كلها.. كاللاتين .. وقبائل انقلبت إلى دول تدعى وراثة بيزنطة ، وبيزنطة بعد على قيد الحياة.. كالبلغار .. الذين قاد ملكهم سيمون Symeon جيشه فى أوليات القرن العاشر ضد القسطنطينية ، وادعى فى جرأة حمل اللقب الإمبراطورى ، ولم يكن هدفه إقامة مملكة منافسة لبيزنطة ، أو بديلة عنها ، بل أن يرفع نفسه على عرش القسطنطينية امبراطورا رومانيا ! بل والصرب ، الذين سمى ملكهم ستفن دوشان Stephen Dusan نفسه فى أربعينيات القرن الرابع عشر (١٣٤٥) «سيد كل الإمبراطورية الرومانية تقريبا » !! بعد أن راودته الأحلام حول إمكانية خلع الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس Ioannes V Pa-laeologus وداعبته الآمال فى إعادة مجد روما القديم على يديه ، وكيف لا وهو يرى نفسه يسيطر إلى جوار المناطق التى كانت تحتلها القبائل الصربية أصلا، على ألبانيا وإبيروس وتساليا ومقدونيا ، بينما أمست بلغاريا تدور فى فلكه!

ومن قبل .. فى القرن الثانى عشر، كاد فردريك بربار وسا Frederick Barbarossa ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١١٥٢-١١٩٠)، يعتبر نفسه خليفة قيصر وأوكتافيانوس أوغسطس وقسطنطين العظيم وجوستنيان ، رغم أصله الجرمانى ودولته القبلية! ولذا نراه فى عام ١١٧٦ ينتهز فرصة الهزيمة التى لحقت بالإمبراطورالرومانى فى القسطنطينية على يد سلطان قونية السلجوقى ، عند ميريوكفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى، ليكتب بكل التشفى والاحتقار إلى عاهل الرومان ذاك، مانويل كومننوس Manuel Com-nenus (١١٤٣-١١٨٠) رسالة يجرده فيها من صفته الرومانية الشرعية ويصفه بأنه ملك اليونان Rex Grecorum وأنه هو ومملكته اليونانية Regmun Greciae جزء من امبراطوريته الرومانية !! أى إمبراطورية فردريك بربار وسا .

هكذا تبدو علامة الاستفهام كبيرة لأعين الدارسين للتاريخ البيزنطى، إذا أضفنا إلى ما سبق ، البابوية فى روما ، والتى مافتئت تعمل للسيطرة على القسطنطينية ، كنيسة ودولة ، بحجة أنها بيعة مارقة وامبراطورية مهرطقة . كيف استطاعت الإمبراطور البيزنطة إذن أن تعمر كل هذه القرون ، وسط كل هذه الأخطار المحدقة ، التى تتهددها صبيحة كل يوم ؟!

ولا مندوحة عن القول، إن الإمبراطورية البيزنطية كانت تتمتع لفترات طويلة باستقرارسياسى بعيد عن التقلبات ، واستقرار اقتصادى بعيد عن الهزات ، وعملة ذهبية لها

وضعها ومكانتها فى السوق التجارى العالمى ، وتحظى بجهاز إدارى كفؤ، كان عونا كبيرا للسلطة الإمبراطورية فى إدارة شئون الدولة ، فى ظل حكومة مركزية صارمة، يجلس على رأسها امبراطور، يمثل فى الفكر السياسى الرومانى ، «نائب المسيح» Vicarius Christi على الأرض ، ويتبعه جيش كبير من الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات ، ورغم ما كان يعترى هذا الجهاز من التعقيد ، إلا أنه لم يفتقد المرونة . ولعل الكتاب الذى وضع فى منتصف القرن العاشر الميلادى بقلم امبراطورى «عن الإدارة الإمبراطورية» De Ad-ministrando Imperio دليل واضح على ما يمكن أن تحققه الإدارة الناجحة من خدمات .

وإلى جانب هذا كله كانت الإمبراطورية تنعم بتوافق يكاد يكون مستمرا بين السلطتين الزمنية والروحية ، بعد أن أمست الكنيسة فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور، على عكس ما كان عليه الحال فى الغرب الأوروبى؛ من الصراع السافر بين البابوية والإمبراطورية، حول السيادة العالمية ، والذى انتهى فى ستينيات القرن الثالث عشر ، بتوجيه الضربة القاضية للإمبراطورية ، عندما سيق الملك الصبى كونرادينو Conradino آخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الحاكمة فى ألمانيا ، إلى الإعدام فى نابولى، بايعاز من البابوية [١].

ولايغيب عن الذهن فى إطار هذه العوامل الإيجابية ، ما شهدته بيزنطة طوال عصرها من استتباب النظام السياسى، منذ رفع منه قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧) القواعد فى القرن الرابع الميلادى، بحيث لم تشهد ثورة حقيقية تستهدف قلب نظام الحكم، وتغيير قاعدة النظام السياسى بشكل جذرى ، إلا مرة واحدة هى التى حدثت فى عام ٥٣٢ فى القسطنطينية [٢]، وإن كنا قد شهدنا حركات تمرد متعددة، إلا أنها كانت موجهة ضد شخص الجالس على العرش، ولم تكن تستهدف العرش نفسه .

١- راجع فى ذلك بحثنا المعنون : «السمو البابوى بين النظرية والتطبيق»، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الثالث. القاهرة ١٩٨٥ .

٢- تعتبر هذه الثورة التى اندلعت ضد الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٣٢ من أخطر الثورات فى تاريخ بيزنطة؛ إذ شارك فيها السناتو والحرس الإمبراطورى وحزبا الزرق والخضر وأصحاب الديانات المختلفة من الوثنيين والمسيحيين على تعدد مذاهبهم وجموع الناس فى العاصمة، وكادت أن تطيح فعلا بالنظام السياسى القائم. للمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة . راجع الفصل الخامس .

ولنضع إلى جوار هذا كله .. القسطنطينية، العاصمة الإمبراطورية، باحتلالها لذلك الموقع الاستراتيجى الممتاز، حيث تطوقها المياه بأذرع ثلاث ، البسفور وبحر مرمره والقرن الذهبى، فتوفر لها حماية طبيعية ، ضمنت لها وللإمبراطورية الأمن العسكرى ، وبالتالى البقاء السياسى، بعد أن صمدت لهجمات الجرمان والفرس والآفار والمسلمين والبلغار والنورمان واللاتين ! لقد جاء زمان لم يبق فيه من بيزنطة الإمبراطورية ، إلا بيزنطة العاصمة ، كان هذا فى عام ٦٢٦ عندما حاصرها الآفار من الغرب ، وراح الفرس يشعلون نار ربهم على الشاطئ الآسيوى للبسفور قبالة القسطنطينية ، والجيوش البيزنطية تعمل فى الخارج تحت زعامة هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١) فى أرض فارس نفسها، وأفلحت العاصمة فى الإفلات من هذا الحصار ، بمناعة موقعها ، وقوة تحصيناتها، ودبلوماسية ساستها .

إذن .. فالاستقرار السياسى فى الداخل والخارج ، والعمل الإدارى الناجح، والإزدهار الاقتصادى ، وتأمين طرق التجارة العالمية ، وضمان السيادة للعملة البيزنطية ، وتوجيه السياسة الاقتصادية فى السوق العالمى، والتأييد المادى والمعنوى للجهود التى تبذلها الكنيسة الأرثوذكسية لنشر المسيحية بين شعوب البلقان الوثنية ، والتى تمهد تلقائيا لبسط النفوذ السياسى للإمبراطورية على جيرانها، كل هذا يحتاج بلاريب إلى قوة عسكرية رادعة قادرة على تحقيقه، ودبلوماسية ماهرة .

من هنا كان طبيعيا أن يوجه الأباطرة اهتمامهم الكامل إلى الجيش، ويعنون بتدريبه وتنظيماته وأسلحته ، وخططه العسكرية ، ولاغرابة إذن أن نجد جل أباطرة بيزنطة من العسكريين، وأن معظمهم قادوا جيوشهم بأنفسهم، ووضع بعضهم رسائل تحتوى على دراسة قيمة عن الجيش فى زمانه ، مثل الإمبراطور موريس Mauricius فى القرن السادس. وحتى هؤلاء المدنيين منهم ساهموا بفكرهم فى الاهتمام بالجيش البيزنطى ، فوضع ليو السادس Leo VI الحكيم فى أوائل القرن العاشر الميلادى، كتابه عن «التاكتيكات العسكرية»، وخلف إبنه قسطنطين السابع آخر عن «الثغور» .

لقد كان الجيش بحق- كما يقول المؤرخ البيزنطى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى، ميخائيل بسللوس Michael Psellus هو مصدر القوة الحقيقية للإمبراطورية ، بينما يعبر عالم الدراسات البيزنطية ، نورمان بينز N. Baynes عن ذلك فى عبارة بليغة بقوله : «ليس تاريخ روما إلا تاريخ الجيش الرومانى، ولايصدق اعتبار بيزنطة وريثة روما فى شئ ،

بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية . لقد بنيت الإمبراطورية وأمنت بفضل كتائبها ». وهذا ستفن رنسيمان S. Runciman يؤكد قائلا : «كان النظام الإدارى فى بيزنطة مرتبطا ارتباطا وثيقا بقواتها العسكرية ؛ فالأعداء يحيطون بالإمبراطورية من كل جانب ، ولم يحدث قط أن الحكومة أحست لحظة واحدة أنها غير معرضة لخطر الغزو الأجنبى ، بل إن وجودها فى حد ذاته كان متوقفا على ضبط الشعوب المحيطة بها الضبط الصائب. وهذا يتوقف على جيش وأسطول يتصفان بالكفاية والاستعداد الدائم ، وعلى سياسة دبلوماسية يقظة لاتهدأ لحظة عن العمل ... لقد قضت الضرورة على البيزنطيين أن يصوغوا أنفسهم فى الوقت المناسب على أسس عسكرية ، وأن يولوا هذه الشئون العسكرية كل التفاتهم وعملهم، وكان ذلك كله فى مصلحتهم ». ويضيف .. «لقد كانت بيزنطة طوال العصور الوسطى بلدا تدرس فيه أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية كاملة ، وأخرجت بيزنطة سلسلة متصلة الحلقات من الكتاب العسكريين ذوى الاقتدار، كما أن كثيرا من مؤرخيها كانوا يأخذون بطرف من الاهتمام بالشئون العسكرية ، ومنهم نستطيع أن نتعقب تطور تاريخ العسكرية البيزنطية» .

وقد يصبح الاعتماد على الجيش أمرا طبيعيا لبعض زمن ، وقد يطول ، لكن أن تظل الدولة فى حالة تعبئة عسكرية كاملة لزمن طويل ، خاصة إذا امتد هذا الزمن إلى ألف ومائة من السنين ، فإن هذا يعد ضربا من المستحيل ، وحرثا فى بحر ، لخزانة لابد أن تعلن إفلاسها ، وروح معنوية لابد أن تنهار ، ومعين لابد أن ينضب من الموارد البشرية ؛ لقد ظل الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) خمسا وعشرين سنة متصلة يحارب فى الغرب الإمبراطورى ، من أجل استرداد الولايات الرومانية الضائعة والواقعة فى قبضة الشعوب الجرمانية، ويدفع خلالها جزية سنوية ضخمة لفارس ، فترك فى النهاية خزانة خاوية ، وولايات مقفرة خربة فى إيطاليا وأفريقيا ، وأخرى على شفا الثورة والضياع كمصر وسوريا، وجيشا ممزقا ، رغم أن جوستنيان كان دبلوماسيا بارعا !! وهذا هو باسل الثانى Basilius II (٩٧٦-١٠٢٥) يشغل من القرن الحادى عشر سنواته الأولى حتى الثامنة عشرة، فى حرب مع المملكة البلغارية ، ويذهب فى التاريخ بشهرة «سفاح البلغار» Bulgaroctonos حتى إذا قضى نحبه بعد ذلك بسبع سنين ، هوت بيزنطة دفعة واحدة ، ولم تقم لها من بعد قائمة ، وإن ظلت موجودة فى سجلات التاريخ حتى منتصف القرن الخامس عشر، ولم تكن السنوات المائة

(١٠٨١-١١٨٥) التى حكمها آل كومننوس Commeni إلا بريقا .. ومض .. ومضى !! وعندما أمست السيادة فى آسيا الصغرى Asia Minor للأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر بعد «مانزكرت» عام ١٠٧١، فقدت بيزنطة إلى حد كبير معينها الرئيسى فى تجييش الجيوش ، وراحت تولى وجهها شطر الغرب باحثة عن المرتزقة من الجنود .

فى مثل هذه الظروف .. وغيرها .. كان لابد لبيزنطة أن تستخدم سلاحا آخر إلى جانب القوة العسكرية ، كان له مضاؤه وتأثيره البعيد، أعنى الدبلوماسية . وقد برعت بيزنطة فى استخدام هذا السلاح خلال العصور الوسطى ، حتى أصبح علما عليها، وغدت هى بحق أستاذا فى هذا الفن ، بعد أن وضعت له قواعده ومبادئه، والتزم أباطرتها جميعا- مع المرونة المطلوبة- بهذه القواعد ، حتى أحلها قسطنطين السابع فى القرن العاشر مكانا مقدسا ، فوق منضدة مذبح أيا صوفيا Hagia Sophia وأوصى ابنه وهو يعظه أن يدخل فى روع الشعوب التى يتعامل معها، أن هذه القواعد قررتها العناية الإلهية منذ عهد قسطنطين الأول فى القرن الرابع . وعلى هذا النحو ، كان طبيعيا أن يتحقق لبيزنطة بدبلوماسيتها، إلى جانب كل ما عرضنا له من عوامل القوة ، بقاؤها عبر هذه القرون الطويلة من الرابع إلى الخامس عشر.

لقد كان ضروريا- على حد قول دفورنيك[٣] Dvornik - أن تعلم بيزنطة الكثير عن الشعوب المجاورة لها، حتى يمكنها التعامل معها من الناحيتين السياسية والعسكرية ، لذا كانت الدبلوماسية تعتبر الحماية الحقيقية ضد أية مفاجآت قد تحدث ، خاصة وأن القوة العسكرية للإمبراطورية، كانت تسير دائما، منذ نهاية الربع الأول من القرن الحادى عشر نحو التدهور. ومما لاشك فيه أن التوافق بين العسكرية والدبلوماسية كان كفيلا بانقاذ الإمبراطورية خلال أشد فتراتها تأزما إبان القرنين السادس والسابع ، على سبيل المثال . وساعد الأباطرة ليس فقط فى التغلب على كثير من الأزمات ، بل فى إعادة إحياء مجد الإمبراطورية خلال القرنين العاشر والحادى عشر .

لقد سارت الدبلوماسية البيزنطية جنبا إلى جانب القوة العسكرية فى خطين متوازيين، يعملان معا، وقد يسبق أحدهما الآخر أحيانا ، لكنهما يمثلان جناحا السياسة البيزنطية الخارجية ، وكثيرا بل ودائما ، ما عوضت الدبلوماسية النقص الذى كان يعتور القوة العسكرية

٣- Dvornik , Origins of intelligence Services, pp . 165-166 .

فى معظم الأزمات ؛ ذلك أن الحدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب أعدائها ، كما تقول المؤرخة «هسى»[٤] لم تكن تسمح لإدارة الخارجية البيزنطية إلا بوقت قليل تسترد فيه أنفاسها اللاهثة . ومن ثم كانت الدبلوماسية سلاح بيزنطة التقليدى المحبب إليها ، والذى أثبت فعاليته فى مناسبات عديدة، هى إن شئنا إذن بتعبير «أو بلنسكى»[٥] Obolensky واحدة من أشهر ما خلفته الإمبراطورية البيزنطية من سمعة فى التاريخ الأوربى». ويضيف فى موضع آخر[٦] قائلا : «ليس هناك شك فى أن الدبلوماسية البيزنطية كانت بشكل عام ويقينى .. ناجحة . ولم لا .. وقد أنقذت الإمبراطورية فى مواطن كثيرة من الغزو والدمار ، وجذبت جموعا من الوثنيين إلى دائرة ضوء الحضارة اليونانية الرومانية ، وأضافت إلى عالم المسيحية مساحات واسعة من الأراضى فى البلقان وإلى الشمال عند البحر الأسود . لقد كانت الدبلوماسية البيزنطية عاملا من أهم العوامل فى التاريخ الأوروبى ، يُرى أثره بصورة واضحة فى الميراث الثقافى ؛ فشعوب أوروبا الشرقية تلقت الكثير من مبادئ السياسة الخارجية على يد ساسة بيزنطة ، وتعلم حكام هذه المنطقة فى العصور الوسطى الشئ الكثير من سادتهم ، بينما انتقلت بعض تقاليد الدبلوماسية البيزنطية ، عن طريق البنادقة ، إلى الغرب الأوروبى . ومن الغريب .. أنه على الرغم من هذا الدور الحيوى الذى لعبته الدبلوماسية البيزنطية فى السياسة الإمبراطورية إلا أنها كما يقول مؤرخنا سالف الذكر أو بلنسكى، ما زالت ميدانا بكرا فى حاجة إلى كثير من الجهد والدراسة . والمحاولات التى جرت فى هذا السبيل رغم أهميتها ، قليلة ، نخص منها بالذكر ما جاء ضمن كتابات «شارل ديل» عن الامبراطور «جوستنيان»؛ و«رنسيمان» عن «رومانوس لكابنوس»؛ و«رامبو» عن «قسطنطين السابع»؛ و«جيناكوبلوس» عن «السياسة الغربية لميخائيل الثامن». وما كتبه «أوبلنسكى» نفسه عن «الدبلوماسية البيزنطية»، والذى قصر الحديث فيه عن السياسة البيزنطية تجاه الشعوب الواقعة على الحدود الشمالية للإمبراطورية فى مناطق القوقاز وشبه جزيرة القرم ونهر الدانوب، خلال القرن العاشر الميلادى، مع دراسة للخلفية التى ارتكزت عليها هذه الدبلوماسية (٧).

٤- العالم البيزنطى ، تأليف ج .م هسى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص٢٤٩ .

٥- C. M. H. IV, 1 , p. 473 .

٦- The Principles and methhods of Byzantine diplomacy , p. 61 .

٧- Ibid. p. 46 .

وفى ضوء هذه النقطة الأخيرة ، فإنه مما يثير الانتباه ، أن أحد أباطرة بيزنطة الأدباء فى عصرها الذهبى، إبان القرن العاشر ، أعنى قسطنطين السابع.. الأرجوانى المولد Con-stantinus VII Porphyrogenitus ، أى المولود فى الأرجوان ، قد ترك ضمن ما ترك من مؤلفات، كتابه الذائع «عن الإدارة الإمبراطورية» De Administrando Imperio وقد وضعه حوالى بين عامى ٩٤٨-٩٥٢ ، ووجهه إلى ابنه الأمير الشاب رومانوس Romanus (الثانى فيما بعد) يهدف به إلى تعليمه كيف يمكن أن يصبح حاكما أريبا ؛ وذلك بأن يضع بين يديه من خلال هذا الكتاب ، معرفة كاملة بالشعوب المجاورة للإمبراطورية ، وكيفية التعامل معها، «... لأن المعرفة بهذه الشعوب ستكون دائما ذات فوائد عظيمة لك يا طفلى الحبيب، وستنفعك عندما تجد نفسك فى حاجة إليها ، فمن الصواب أن لا تكون جاهلا، بل أن تكون لديك المعرفة الدائمة بالأجزاء التى تشرق عليها الشمس ، فكلها كانت فى وقت ما خاضعة للرومان »[٨].

ويمضى قسطنطين السابع قائلا : «أى بُنى .. يجب أن تعلم الاختلافات القائمة بين كل شعب وآخر ، وكيف تعامل كلا منهم ، كيف تستميلهم وكيف تحاربهم، إنهم سوف يرتعدون أمامك لفرط حكمتك ، ويهربون كما يفرون خوف النار ! وسوف تطبق من الخوف شفاهم وتجرحهم كلماتك كالسهام فتودى بهم إلى الموت »[٩].

كان قسطنطين السابع حريصا على أن ينقل إلى إبنه خبرته السياسية التى كونها وهو بعد فى الظل قبل أن يغدو إمبراطورا [١٠]، فقد أريد له أن يظل قاصرا حتى الأربعين من عمره !!

٨- D . A . I . XLIII .

٩- Ibid. XLVII .

١٠- أريد لقسطنطين السابع أن يظل طفلا قاصر لفترة طويلة؛ إذ وقع بعد وفاة أبيه ليو السادس تحت وصاية القائد البحرى الشهير رومانوس لكابنوس ، الذى جعل من نفسه الإمبراطور السيد وأنزل قسطنطين الامبراطور الشرعى إلى مرتبة الإمبراطور الشريك ، وهو النظام الذى كان سائدا فى بيزنطة خلال فترات كثيرة، خاصة زمن الأسرة المقدونية . بل إنه رفع أبناءه أيضا إلى هذه المرتبة ، وظل يسير دفة الدولة ربع قرن (٩١٩-٩٤٤) وكف أيدى قسطنطين طوال هذه السنوات . وفى عام ٩٤٤ دبر أبناؤه مؤامرة تم فيها القبض عليه، فاستغل الإمبراطور قسطنطين هذه الفرصة ، ولم يسمح لولدى رومانوس لكابنوس بأن يفرضا عليه من جديد سلطة أبيهما ، وأيده فى ذلك أهالى القسطنطينية الذين كانوا يتعلقون به ، فأعدمهما عام ٩٤٥ وهكذا تولى زمام السلطة وتخلص من الوصاية وهو فى سن الأربعين !!

ولم تكن هذه السنوات الطوال التى قضاها تحت وصاية صهره القائد البحرى رومانوس لكابنوس Romanus Lecapenus لهوا وعبثا، كما كان يتوقع الوصى ويتمنى ، لكنها كانت فترة تأمل وصمت ودراسة ، شغل نفسه خلالها بالوقوف على تفصيلات كل صغيرة وكبيرة لكل ناحية من نواحى الإدارة ، بصورة لاتعرف الملل ، وفى كل ما دق من أمور البلاط ، وبلغت سمعته مرتبة عالية فى المجال الخارجى فى ميدان الدبلوماسية ، وعلى الصعيد الداخلى فى النواحى الثقافية ، وأبدى اهتماما زائدا بالفن والأدب والتاريخ والآثار ، يصفه المؤرخ جنكنز Jenkins[(١١)] فى دراسة مقارنة ، بعبارات بليغة بقوله : «ورث عن أبيه حب العلم والمعرفة، فغدا بحق إبنا لوالده المثقف ليو السادس الحكيم ، ومثقفا من طراز فوطيوس[(١٢)] Photius ، أحب الكتب وهام بها وراح يجمعها من كل مكان من الإمبراطورية وربما من خارجها. كان واحدا من البيزنطيين القلائل الذين أدركوا جيدا أسلوب ومعنى النثر الكلاسيكى. لقد كان على النقيض تماما من جده باسل الأول Basilius I الذى لم يكن يستطيع الكتابة على الإطلاق ، (كان مجرد سائس للخيول قبل أن يغدو امبراطور) ، وأبيه الذى كان يكتب بحذلقة ، وحفيده باسل الثانى الذى أوتى بسطة فى الجسم ، بينما لم ترق كتابته إلى أبعد من مستوى صبى غِر».

وإذا كانت منجزاته فى ميدان الثقافة تعد شيئا رائعا، فإن حمايته لمختلف الفنون تفوق الوصف ، وإذا كان لابد من الحديث عن شئ ، فليكن حول تشجيعه للتعليم والبحث. لقد كان متضلعا من الدراسات الكلاسيكية ، وتَفَهُّمَ ذكاؤه المفاهيم النظرية والتطبيقية للمعرفة ، المعرفة فى حد ذاتها ، والتى تعد ضرورة لمقدرة الرجل العملى للوصول إلى القرار الصواب فى

١١- D. A. I., general introduction , by Jenkins, p. 7

وراجع له أيضا Byzantium, the imperial Centuries, p . 265

١٢- يعتبر أعظم رجالات القرن التاسع فى بيزنطة والغرب الأوربى علما ومعرفة ، وقد عمل أولا أستاذاً بجامعة القسطنطينية ، واتخذ من بيته ناديا أدبيا وعلميا، دون خلاصة ما كان يقرأه فى النادى من المؤلفات، فترك بذلك مؤلفه الشهير الذى عرف باسم «المكتبة» Bibliotheca وقد أصبح بطريركا للقسطنطينية على عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث العمورى (٨٤٢-٨٦٧) ، وحاز شهرة واسعة أيضا من موقعه هذا بخلافه فى الرأى مع كنيسة روما حول الروح القدس فى الثالوث .

مختلف شئون الحياة. وفى هذه الناحية والتى تتضمن بصورة رئيسية دراسة التاريخ ، نجد أن قسطنطين أعطاها اهتماما خاصا. فمن بين خريجى جامعة القسطنطينية ، التى كان هو المؤسس لها بعد القيصر بارداس[١٣] Bardas اختار موظفيه المدنيين ورجال الاكليروس . وقد أخضع ابنه رومانوس لمثل هذه الدراسة العملية . وإذا كانت هذه المعرفة ضرورية للفرد العادى فى ممارسة حياته اليومية ومتطلباتها ، فهى بالأحرى أشد ضرورة لمن سيصبح حاكما . ولاشك دفعه وساعده على ذلك أن بيزنطة بلغت فى عهده أوج مجدها السياسى والعسكرى ، وقمة رقيها الثقافى ، وأروع آياتها الفنية [١٤].

لاغرابة إذن أن يتمخض عن هذا كله انتاج فكرى ضخم ، ينم عن شخصية موسوعية متكاملة ، تمثلت فى كتابه الهام جدا «عن الثغور» De Thematibus ومؤلفه الراقى «عن المراسم» De Cermoniis aulae Byzantinae الذى يعد وصفا دقيقا لما كان عليه البلاط البيزنطى، ويعتبر - كما يؤكد قسطنطين السابع نفسه فى مقدمته ، المظهر الخارجى والتجسيد المرئى للتناغم والانسجام فى الداخل ، ونظاما للطقوس العامة ، يرفع من قدر العظمة الإمبراطورية ، ويحدد أطر ومظاهر الحياة اليومية فى الدوائر الإمبراطورية البيزنطية ، ويقدم أنموذجا يحتذى لبلاط الملوك والأمراء الآخرين [١٥]. أما كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية» De Administrando Imperio فهو عمل رائع فى فن السياسة ، ومقال خطيرة فى أصول الدبلوماسية ، وتصور دقيق لوجهة نظر القسطنطينية تجاه العالم المحيط بها ، سماه صاحبه ببساطة «من قسطنطين إلى إبنه رومانوس» وعرفه التاريخ باسم «عن الإدارة الإمبراطورية»، ومن ثم فقد كان من وجهة نظر الإمبراطور عملا بالغ السرية top Secret ، وليس مسموحا بتداوله خارج القصر ، بل كان غير مسموح إلا لعدد محدود جدا من الدبلوماسيين بالاطلاع عليه [١٦]. ويمكن تقسيم هذا العمل إلى أقسام أربعة ؛ أولها مفتاح للسياسة الخارجية

١٣- هو خال الإمبراطور ميخائيل الثالث ومستشاره ، قام بدور بارز فى إعادة تنظيم جامعة القسطنطينية ثانية ، بعد أن امتدت إليها يد الإهمال لفترة طويلة من الزمن بفعل الظروف العسكرية الخارجية التى تعرضت لها الإمبراطورية .

١٤- D. A. I., general introduction , by Jenkins , pp. 7-9 .

١٥- هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص٣١٢ ، ٣٧٥ .

١٦- Jenkins , Byzantium , p. 260 .

البيـزنطيـة ، خـاصـة فى المنطقـة المضطربة عند الحـدود الشـمـاليـة ، والثـانى درس فى فن الدبلوماسية ، والثالث وهو أطولها ، مسح شامل لمعظم الشعوب التى تحيط بالإمبراطورية ، بدءا بالعرب فى الجنوب الشرقى ومن يحيطون بحوض البحر المتوسط والبحر الأسود ، وانتهاء بالأرمن على الحدود الشرقية . والرابع ملخص عن التاريخ الداخلى السياسى والإدارى على حدود الإمبراطورية (١٧).

والكتـاب على هذا النحـو يفـصح عن الهـدف الذى من أجله أقـدم الإمـبراطور قسطنطين السابع على وضعه ، فهو يحاول أن يقدم لابنه خلاصة فكره وتجاربه وقراءاته فيما يتعلق بفن معاملة الشعوب ، التى كان على بيزنطة أن تحتك بها دائما ، راضية أم كارهة ، ونراه يلح بصورة واضحة على أن يعى ابنه رومانوس خبرة هذه السنوات ، فيقول : « ... تفهم يا بنى جيدا هذه الأمور ... وكن حكيما ، فقد تتولى زمام الحكم يوما ما ، وسوف أراعى فيما أقدمه لك من موضوعات أن تكون مفيدة قدر الطاقة ، وما يخصك منها واضح وفيه الأمن للجميع ، ومن خلاله تستطيع أن تدبر وتوجه شئون الحكم فى هذا العالم ، وسيكون حديثى سهلا وبأسلوب مبسط ، ولاغرابة يا بنى فى ذلك ، فلست أديبا لأقدم لك حديثا رائعا من طراز العصر اليونانى، بأسلوب سامٍ رفيع ، لكنه سيكون واضحا يصلح لكل حين ، ومما أقدمه لك وأناقشه ، سوف تتعلم الكثير من الأمور التى تنير لك الطريق . إن ما أقدمه – أى بُنى– خلاصة خبرتى الطويلة، يُسهل عليك فهم الأمور وتدبر العواقب (١٨).

ويجب أن لا ينصرف الذهن إلى أن حديثنا الآن عما كتبه قسطنطين السابع ، يعنى أن الإمبراطور قد ابتدع أساليب جديدة فى فن الدبلوماسية البيزنطية، أو أضاف المزيد إلى ما اتبعه الأباطرة الأسلاف ، فقد كان العديد من أولئك الذين سبقوه ، وأولاء الذين من بعده أتوا، أساتذة فى هذا الفن ، إلى الحد الذى دفع مؤرخا مثل «أوبلنسكى» إلى الحديث عن جوستنيان بقوله : «إن هذا الإمبراطور هو الذى أورث خلفاءه مفهوم الدبلوماسية باعتبارها علما معقدا وفنا رائعا، بحيث يصبح الضغط العسكرى والذكاء السياسى والمهارة الاقتصادية والدعاية الدينية، أسلحة قوية فى السياسة الدفاعية للإمبراطورية(١٩). كل ما نعنيه إذن ، أن

-١٧ D. A. I., general introduction , p. 10 .

-١٨ D. A. I., I

-١٩ C. M. H. IV, p. 47 .

قسطنطين استلهم أحداث التاريخ وتجارب السابقين ، وسجل ذلك بنفسه فى قوله لابنه وهو يعظه : «يا بنى .. هذه هى الأحداث التى جرت فى أوقات مختلفة بين الرومان والأمم الأخرى، وهى وقائع تستحق التسجيل ، وعليك قراءتها والعلم بها، حتى إذا تصادف ووقعت مثلها أحداث فى ظروف مشابهة ، تصبح بمعرفتك السابقةقادرا على معالجتها»[٢٠]. ولايعنى هذا أيضا التقليل من قيمة الدور الذى بذله قسطنطين السابع فى رصد هذه القواعد وتصنيفها والتعامل معها بأسلوب فيه من الذكاء قدر ما به من الجدية ، فكفل لهذه القواعد البقاء ، وأحاطها بسياج من القداسة وسجل خلاصة تجاربه الشخصية إبان فترة حكمه ، مع الشعوب النازلة فى المناطق الشمالية من الإمبراطورية .

وكان طبيعيا إذن أن تحظى إدارة الخارجية البيزنطية برعاية تفوق بقية الإدارات الأخرى فى الجهاز الحكومى ، فعلى ما يتوافر لديها من معلومات ، تتوقف سلامة الدولة وأمنها. وكانت المعلومات التى تنقلها السفارات والبعثات والتجار وغير ذلك من الوسائل الأخرى عن الشعوب المجاورة، تصب كلها لدى جهة أنشئت لهذا الغرض عرفت باسم «إدارة شئون البرابرة» Scrinium barbarorum وربما يعود تاريخ انشائها إلى القرن الخامس الميلادى، وتركزت مهامها حول مراقبة الأجانب المقيمين فى العاصمة أو الوافدين إليها ، والاهتمام بالسفارات الخارجية القادمة إلى القسطنطينية [٢١]. وقد ظل هذا الجهاز قائما حتى القرن الحادى عشر ، وإن كانت سلطاته نفسها قد انتقلت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى، فى أخريات سنى حكم الإمبراطور ليو الثالث الايزورى (٧١٧-٧٤١) إلى يد موظف عرف باسم Logothete راحت أهميته تزداد باطراد حتى أضحى منذ القرن التاسع أهم منصب وزارى فى الإمبراطورية[٢٢]. وإطلاق هذا الاسم بالذات ، «إدارة شئون البرابرة» على جهاز له خطورته وأهميته فيما يتعلق بالعلاقات السياسية الخارجية لبيزنطة مع الشعوب المجاورة، أمر له دلالاته البعيدة؛ فقد انطلقت الدبلوماسية البيزنطية من مبدأ أساسى قائم على ما استقر فى الفكر الرومانى ، إرثا عن اليونان ، أن ما عداهم من الشعوب الخارجة عن نطاق نفوذهم

٢٠- D. A. I., XLVI .

٢١- Dvornik, intelligence Services . p. 174 .

٢٢- Id .

السياسى وسلطانهم الحضارى ، وقبل هذا وبعده، لسانهم ، محض «برابرة» Barbaroi يجب أن ينظر إليهم من علٍ . ولايستثنى من هذه الشعوب إلا الفرس والعرب فى بعض الأحيان : فيحدثنا مؤرخ القرن الحادى عشر ميخائيل بسللوس ، والذى عمل وزيرا لخمسة من الأباطرة ، أن أحدهم وهو قسطنطين التاسع ، أمره أن يكتب إلى المستنصر بالله الفاطمى فى القاهرة رسالة تفيض بالمودة ، وتظهر الخليفة المسلم فى صورة لاتقل عن الإمبراطور البيزنطى مكانة ، ويعلق بسللوس على هذا بقوله ، إنه أبدى موافقته على ذلك أمام سيده ، فلما خلا إلى نفسه ليكتب الرسالة ، حرص على أن لايجعلها مطلقا فى الصورة التى رآها الإمبراطور ، لأن أحدا- فى اعتقاده - لايمكن أن يطاول الرومان منزلة (٢٣).

لقد قر فى ذهن الرومان ، وبشئ من الإصرار ، أنهم الأمة المتحضرة الوحيدة فى هذا العالم، وأن ما عداهم من الشعوب يجب أن يكون فى خدمة أهداف الإمبراطورية، خاضعين لسيادتها أو دائرين فى فلكها ، قانعين بسيادة ملك الملوك Basileus باعتبارهم أنصالا ورعايا ، ذلك دورهم ، وتلك فى الوقت نفسه مهمة الدبلوماسية البيزنطية (٢٤). ولم يكن ذلك غريبا على جوهر الفكر السياسى الرومانى، الذى يؤمن أن حضارته تجمع أرقى ثلاثة عناصر ، التراث الرومانى بأحسن ما قدمه فى القانون والإدارة ؛ والهللينية بأروع ما أبدعته فى اللغة والأدب والفلسفة ، والمسيحية بكل ما حملته من مبادئ . ومن ثم اعتقد البيزنطيون أن إمبراطوريتهم فى جوهرها الحضارى تمثل «العالمية» Oikoumene يجلس على عرشها امبراطور يعد «السيد» الشرعى الوحيد والقانون الحى (٢٥). هذا المعنى حرص على إبرازه مؤرخ القرن السادس أجاثياس Agathias عندما يكتب قائلا : «إن سيادة الإمبراطور تسع العالم كله »(٢٦) ويؤكده بعد قرون أربعة ، الإمبراطور قسطنطين السابع فى كتابه «عن المراسم» عندما يقارن بين سلطان الإمبراطور فى نسقه وانسجامه، وحركة العالم فى تناغمه على يد خالقه»(٢٧).

٢٣- للمزيد من التفصيلات راجع الفصل السادس من هذا الكتاب .

٢٤- Diehl, Byzantium , Greatness and Decline , p. 54 .

٢٥- Obolensky , Byzantine diplomacy, p. 52 .

٢٦- Cited in , Ure, Justinian and his Age , p. 248 .

٢٧- Cited in, Obolensky , Byzantine diplomacy , p. 53 .

بل إن قسطنطين السابع يدعم هذا المعنى ويزيده وضوحا وهو يخاطب ولده بقوله : «أى بنى .. ضع نصب عينيك كلماتى واحفظ جيدا ما آمرك به ، فتغدو فى الوقت المناسب قادرا على أن تستوحى من كنوز الأسلاف مدارج الحكمة، ألا فلتعلم أن كل القبائل فى الشمال قد طبعت على الشره للمال نفوسهم ، لايقنعون أبدا ، تدور أعينهم وراء كل شئ نهما وطمعا، يرفعون عقيدتهم بقول واحد .. هل من مزيد ؟! لايؤدون عملا إلا لقاء ما هو أكثر منه مالا وأشد نفعا. مثل هذه الأشياء التى يلحفون فى طلبها ، ويدعونها لأنفسهم فى قحة ، يجب أن يرد عليهم بقول معسول واعتذار مقبول !! »[٢٨]. ويستخدم قسطنطين السابع نعوتا قاسية فى وصفه لهذه القبائل بعد قليل ، حيث يصمها بـ «المراوغة» «والدناءة» .

وهذه النظرة التى راح قسطنطين السابع يلح عليها بصفة مستمرة فى كل صفحات كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية» فى منتصف القرن العاشر ، والإمبراطورية البيزنطية فى أوج مجدها إبان عصرها الذهبى زمن الأسرة المقدونية ، نسمع رنينها فى القرون الأولى، ويتردد صداها فى القرون التالية والإمبراطورية تعالج سكرات الموت البطئ ! نجدها واضحة فى رسالة قسطنطين الأول التى كتبها إلى مجمع صور عام ٣٣٥ [٢٩]، ورسالة ابنه قسطنطيوس Con-stantius سنة ٣٥٦ إلى السكندريين[٣٠] ، ورسالة جوليان Iulianus إلى باسل أسقف قيسارية كبادوكيا فى آسيا الصغرى عام ٣٦٣ [٣١]، وجوستنيان Iustinianus فى العديد من تشريعاته[٣٢]. ولم يكن المؤرخون البيزنطيون أقل حرصا من أباطرتهم على إبراز هذا المفهوم الذى يعد جوهر الفكر السياسى الرومانى إزاء هذه الشعوب ، ابتداء من يوسيبيوس القيسارى Eusebius فى القرن الرابع [٣٣]، ومرورا بالقرن السادس عند بروكوبيوس

٢٨- D. A. I. , XIII .

٢٩- SOCRAT. historia ecclesiastica , I , 34 .

٣٠- ATHANAS. apologia ad Constantium , 30 .

٣١- IUL . epistola ad Basilium , (BASIL. ep . XL) .

٣٢- IUS. novella XXX . 11 .

٣٣- EUSEB . vita Constantini , IV 56 .

Procopius[٣٤] وميخائيل بسللوس فى القرن الحادى عشر[٣٥] والأميرة أنا كومننا Anna Comnena فى القرن الثانى عشر[٣٦] ونيقتاس الخونياتى Nicetas Choniates فى القرن الثالث عشر [٣٧]. وغير هؤلاء وأولاء كثير .

ولاشك أن هذه النظرة قد شكلت بصورة أساسية طبيعة العلاقات بين الإمبراطورية وجيرانها؛ فالزواج السياسى مثلا ، كان أحد الدعامات الرئيسية للدبلوماسية البيزنطية ، رغم أنه استخدم فى نطاق ضيق تماما ، خاصة إذا كانت العروس بيزنطية. فقد جرى التقليد بمنع زواج أميرات البيت البيزنطى الجالس على العرش ، من أحد ملوك أو أمراء أو زعماء الدول والقبائل الأخرى ، حتى لاتختلط الدماء البيزنطية «النقية» بغيرها .. الأقل منها نقاء ! وإن كان مسموحا بزواج الأباطرة من أميرات أجنبيات ، سعيا لاكتساب ولاء هذه الشعوب ، أو تحريضها ضد عدو يتأبط شرا للإمبراطورية .

وكان التوجيه الذى وجهه قسطنطين السابع لابنه فى هذا السبيل واضحا ، «... إذا أقدم أحد من هذه القبائل المراوغة الدنيئة القاطنة فى الشمال، (ويحددها هو بالخزر والأتراك والروس والسكيزيين) ، على طلب عقد زواج مع امبراطور الرومان ، بغية التحالف، فإن هذا المطلب الرهيب والذى لايليق، عليك أن ترده قائلا : «إن تبعة مشقلة ألقيت على كواهل الأباطرة ، وتمثلت فى وصية لامجال للشك فى صحتها ، حفرت على المنضدة المقدسة للكنيسة الجامعة فى أيا صوفيا ، بحيث لايمكن لأى إمبراطور رومانى أن يربط نفسه برباط الزواج، مع أمة تختلف طبائعها وتقاليدها عما جبل عليه الرومان ، خاصة مع أولئك الوثنيين الذين لم يتناولوا سر المعمودية ، ويستثنى من ذلك الفرنجة وحدهم [٣٨]. وإذا كان لابد من الإجابة عن سؤال حول..

٣٤- PROCOP . de bello Persico II, V 29 .

٣٥- PSELL . Chronographia, III , 9-15 ; IV 40-41 ; VI 75 , 90-91, 95 , 153 ; VIII, 45 , 63-67-70 .

٣٦- ANNA COMN. Alexiad, VIII - X .

٣٧- NICET. CHON . historia , pp. 757-763 .

نقلا عن دكتور اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، حاشية ص٠١ .

٣٨- كان الفرنجة هم الشعب الجرمانى الوحيد من بين الجرمان الآخرين ، الذى تحول منذ البداية إلى =

لماذا هؤلاء بالذات ؟ .. فإنه يمكن القول إنه نتيجة لتلك الشهرة التقليدية التى حازتها تلك المنطقة ، والأصول النبيلة لهذه القبائل !! أما فيما عدا هؤلاء فإنه ليس من سلطة أى إمبراطور أن يقدم على مثل هذا، ومن يفعل ذلك يلق آثاما، إذ يقع تحت طائلة الإدانة باعتباره أصبح غريبا عن جماعة المسيحيين ، وتحق عليه الأناثيما (اللعنة) ، حيث اعتدى على قوانين الأسلاف والشرائع الإمبراطورية »[٣٩].

وإذا كان قسطنطين السابع قد استثنى الفرنجة من بين هذه الشعوب، لما يذكره من «أصولهم النبيلة»، والتى يخالف بها الحقيقة عمدا؛ إذ هم قبيلة من بين القبائل الجرمانية العديدة ، التى التصقت بها صفة «البرابرة» التى خلعها عليهم جميعا الرومان. إلا أن الشئ الذى لم يذكره قسطنطين السابع، والذى يعد تبريرا حقيقيا لهذا الاستثناء ، هو أن ابنه رومانوس قد أقدم على الزواج فى عام ٩٤٤ من «برتا» Bertha إبنة «هيو» Hugh ملك إيطاليا (٩٢٦-٩٤٧)[٤٠]، وبينما يخصص فصلا كاملا من كتابه[٤١] للعودة بنسب من أصهر إليه، أعنى «هيو» إلى الإمبراطور شارلمان Carolus Magnus (Charlemagne) نجده ينحى باللائمة على سلفه الإمبراطور ليو الثالث الإيزورى ، الذى زوج ابنه قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر ، رغم ما حققته الدبلوماسية البيزنطية من نجاح فى هذا السبيل ، إذ أدى هؤلاء الأصهار دورا كبيرا فى وقف تهديد المسلمين للحدود الشرقية للإمبراطورية، ليتفرغ الإمبراطور لدرء الأخطار على الجبهة الشمالية . بل إن قسطنطين السابع لايجد ما يحول بينه وبين خلع صفات وألقاب غير كريمة على ليو الثالث ، لما جلبه من «عار» - حسب تعبيره- على نفسه

= المسيحية الكاثوليكية ، التى أقرها المجمع المنعقد فى نيقية سنة ٣٢٥ ، وكان هذا التحول على عهد ملكهم «كلوفيس» Clovis فى أوائل القرن السادس الميلادى ، بينما اعتنقت بقية الشعوب الجرمانية الأخرى المسيحية فى صورتها الآريوسية . وقد أدى اعتناق الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية إلى آثار بعيدة المدى فى علاقات مملكتهم مع البابوية ، بلغت أوجها بتتويج ملكهم شارلمان امبراطورا بيد البابا فى ليلة عيد ميلاد عام ٨٠٠ . للوقوف على تفصيلات الخلاف العقيدى بين الآريوسية والنيقية (الكاثوليكية) راجع : دكتور رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الخامس .

٣٩- D. A . I., XIII .

٤٠- Jenkins , Commentary on D. A . I. vol. 2 , p. 83 .

وراجع تفصيلات ظروف هذه الزيجة فى C. M. H. vol. III, p. 139

٤١- D. A. I., XXVI .

والإمبراطورية، ويصفه بأنه لم يكن مسيحيا قويا ، بل هرطوقا محطما للأيقونات (٤٢)، ومن ثم لقى الحرمان الكنسى وقيد بقيود اللعنة، لأنه «كيف يليق بالمسيحيين أن يربطوا أنفسهم برباط الزواج مع أولئك الوثنيات ، بينما الكنيسة تحرم ذلك وتعتبره شيئا نكرا»، ويمضى قسطنطين فى تساؤله : «... بل كيف يمكن للأباطرة الرومان الأشهار وهم النبلاء الحكماء أن يقبلوا هذا الأمر؟!» (٤٣).

واضح تماما من عبارات الإمبراطور المولود فى الأرجوان ، مدى تأصل الفكر الرومانى حول دونية هذه الشعوب المجاورة للإمبراطورية ، خاصة عند حدودها الشمالية ، وهى المنطقة التى أضحت فى القرنين التاسع والعاشر ، تمثل مركز الأمن والتهديد لبيزنطة فى وقت واحد ، وتحظى بأهمية كبيرة لدى إدارة الخارجية البيزنطية. وكانت تمتد من سهول هنغاريا حتى بحر قزوين ، وتشمل جبال الكربات ومراعى الاستبس الروسية والأراضى الواطئة إلى الشمال من القوقاز ، وتصل شمالا إلى أنهار «الدونيستر» و«الدنيبر» و«الدون» ، وحتى منتصف الدانوب فى الغرب والفولجا الأدنى فى الشرق، وتضم من بين ما تضم قبائل الآفار والصقالبة والبلغار والمجيار والروس والبشناق . ولاريب أن هذه القبائل كانت ما تزال على وثنيتها

٤٢- ذهب ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس بشهرة واسعة فى التاريخ لتوليهما زعامة حركة تحطيم الأيقونات Icons أو الصور المقدسة . وكانت هذه الصور التى تمثل العذراء والمسيح والقديسين والشهداء ، قد لقيت رواجا فى دور العبادة المسيحية والأديرة والدور الخاصة ، حيث ازدانت بها جدران تلك الأماكن ، لكن خطورتها تمثلت فى أنها أضحت محور إجلال يصل إلى حد التقديس عند جموع المسيحيين ، وقد عد ليو الثالث ذلك ضربا من الوثنية الجديدة تشوب المسيحية ، فأصدر أوامره بتحطيم الأيقونات فى كل أنحاء الإمبراطورية. وكان ابنه قسطنطين الخامس أعنف منه فى هذه الأتجاه . ولقى كلاهما العنت والمقاومة من جانب البابوية فى روما، التى كانت من أشد المتحمسين لتقديس الصور. وأخذت هذه المشكلة أبعادا سياسية واقتصادية ، ونتائج عسكرية وإدارية وفنية إبان القرنين الثامن والتاسع . أنظر .

Hefele , history of the Councils of the Church , vol . 5

وأيضا Percival , the Seven ecumenical Councils (in Nicene and post Nicene Fathers , vol . XIV .

وراجع كذلك : دكتور أسد رستم : حرب فى الكنائس . بيروت ١٩٥٨ .

٤٣- D. A. I., XIII .

وبداوتها ، يباعد بينها وبين الإمبراطورية البيزنطة، الدين والحضارة ، وإن أخذت تتحول تدريجيا على يد مبشرين بيزنطيين إلى المسيحية الأرثوذكسية ، ومن ثم كانت نغمة «الرومانية» أو «الدولة الوحيدة المتحضرة فى العالم»، عالية تماما فى كتابات قسطنطين السابع، وهو يحدث عند هذه القبائل فى معرض الزواج السياسى ، «فلكل قوم- حسب تعبيره- عاداتهم وتقاليدهم التى يتميزون بها عن غيرهم ، ونظامهم الخاص بهم ، وعليهم اتباع الأعراف السائدة بينهم واحترامها والحفاظ عليها، فكما أن كل حيوان يحن إلى فصيلته، فإن على كل أمة أن ترتبط عن طريق الزواج ، ليس من أولئك الذين يخالفونها الأصل واللسان، بل مع من ينتمون إليها ويتحدثون لغتها ، حتى يسود الوئام والتفاهم بين من هم على شاكلة واحدة»[٤٤].

وليس معنى هذا أن التقاليد البزنطية كانت تحرم تحريما قاطعا مثل هذه الزيجات ، فقد كانت تسمح- فى إطار- دبلوماسية بارعة- بالزواج من أميرات بيزنطيات لاينتسبن إلى الأسرة الجالسة على العرش ، كما حدث مثلا من زواج أوتو الثانى Otto II ولى العهد الألمانى والمرشح لاعتلاء عرش امبراطورية الرومان فى الغرب بعد أبيه، من الأميرة البيزنطية ثيوفانو Theophano فى ستينيات القرن العاشر ، وزواج الأميرة ماريا لكابنا Maria Lecapena حفيدة الإمبراطور رومانوس الأول لكابنوس من بطرس Petrus ملك البلغار . ورغم أن هذه الزيجة الأخيرة كان أكثر نفعا للإمبراطورية بصورة مباشرة ، بعد اشتداد حدة العداء بينها وبين المملكة البلغارية على عهد ملكها سيمون ، إلا أن قسطنطين السابع أعلن امتعاضه وسخطه على هذا الزواج ، ووجدها فرصة سانحة للتشهير بصهره رومانوس ، الذى أبقى عليه- كما أسلفنا- قاصرا حتى الأربعين من عمره .

كتب قسطنطين مخاطبا ابنه .. «فإن سألوك - يعنى القبائل النازلة فى الشمال - كيف سمح إذن الإمبراطور رومانوس لنفسه ، أن يرتبط بعلاقة زواج مع البلغار ، معطيا يد حفيدته

٤٤- Id . وللوقوف على خطورة الزواج من الأجانب كما تجسده التقاليد البيزنطية، راجع تلك القصة التى يرويها قسطنطين السابع عن أهالى خرسون Cherson (حاليا سباستبول فى أقصى جنوب غربى شبه جزيرة القرم) وبسبور Bosporus وهى حاليا كرش الواقعة على المضيق الذى يربط بحر آزوفى بالبحر الأسود) .. وذلك فى الفصل الثالث والخمسين من كتابه D. A. I .

إلى بطرس ملك بلغـاريا ؟! فـيـجب أن يكون دفـاعك : «لقـد كـان رومـانوس امبـراطورا شريكا(٤٥) وشخصا جاهلا ، ولم يكن أبدا في يوم ما من بين أولاء الذين ولدوا في الأرجوان ، ولم يُرَبَّ على التقاليد الرومانية منذ كان ، ولاينحدر من أصول نبيلة ؛ ومن ثم نتيجة هذا كله كان في كثير من تصرفاته يتسم بالحماقة والاستبداد . وفي هذا الأمر بصفة خاصة ، لم يبال بما تحرمه الكنيسـة ، ولم يتبع أمر ووصية قسطنطين العظيم ، لكنه بما جبل عليـه من مزاج عنيف وطبع حـاد ، وبعـد عن الفـضـائل ، ورفض لأتبـاع مـا هو حق وصواب، وعـدم التـزام بالتعـاليم التي خلفها لنا الآباء ، تجاسر على أن يقدم على فعلته هذي ... ومن ثم فإن تلك التي أصبحت زوجة ، (يعني ماريا لكابنا) لم تكن إبنة الحاكم والإمبراطور الشرعي، بل إبنة من يأتي ترتيبه الثالث (يعني طبعا بعد الإمبراطور والإمبراطور الشريك) ، وما زال في مرتبة أدنى، ولم يشارك بعد في السلطة ، ولم يمارس أي عمل من أعمال الحكم »(٤٦). ثم يتحدث قسطنطين بعد ذلك عما أصاب الإمبراطور رومانوس لكابنوس في أخريات أيامه من المصائب، حيث أمسى مكروها من السناتو والكنيسة ، وانتهى الأمر بمقتله »(٤٧).

على أن دفـاع قسطنطين على هذا النحو ، عن التـقاليد الرومـانيـة ، لايخلو ، بل يمتلئ ، بالتـحـامل على رومـانوس لكابنوس : ذلك أن زواج مـاريا لكابنا من بطرس البلغـاري، أنقذ السـلام في البلقان خمسة وعشرين عاما ، وكان هذا في حد ذاته عـملا سيـاسيا بارعا ، بل إن

٤٥- لم يكن رومانوس لكابنوس ينتمي للأسرة الجالسة على العرش ، وهي الأسرة المقدونية التي أسسها باسل الأول المقدوني عـام ٨٦٧ . وقـد توارث أبناء الأسـرة الحكم على النحـو التـالي : باسل الأول ، ليـو السـادس ، قسطنطين السـابع ، رومـانوس الثـاني ، باسل الثـاني، قسطنطين الثـامن ، زوي وثيـودورا . وفي خلال سن القصـور الذي عاشه كل من قسطنطين السابع ورومـانوس الثـاني وباسل الثـاني ، قـفـز إلى العرش كأباطرة شركـاء أوصيـاء على الإمبـراطور الشرعي ، عدد من القادة العسكريين الذين ينتمون إلى العائلات الأرستقراطيـة الزراعيـة والعسكرية في الوقت نفسـه ، خاصة في منطقة آسيـا الصغرى . وكان من بين هؤلاء القـائد البحري رومانوس لكابنوس ثم نقفور فوقـاس Nicephorus Phocas ويوحنا تزيمسكس Ioannes Tzimices وعرف هؤلاء بالأباطرة الشركـاء ، وهو النظام السـيـاسي الذي عـرفتـه بيزنطة كـمـا أسلفنا . وقـد تحقق لبيزنطة على يد هؤلاء الشركاء الكثير من الانتصارات العسكرية الحاسمة في الخارج .

٤٦- D. A. I., XIII.

٤٧- Id.

قسطنطين نفسه لم يجد أمامه مفرا ، إلا أن يلتمس العذر ، وإن كان على استحياء ، لروماتوس فيما أقدم عليه، لما تم نتيجة هذه الزيجة من افتداء عدد من الأسرى ، بالإضافة إلى أن البلغار كانوا قد تحولوا إلى المسيحية . إلا أنه يضع القاعدة الأساسية فى هذا الزواج السياسى باعتباره أحد عمد الدبلوماسية البيزنطية ، حين يؤكد بلا أى لبس أو غموض، أنه حتى الاتفاق فى العقيدة «لايبيح زواجهم من أية أميرة من الأسرة الحاكمة، سواء كانت صلة قرابتها من الدرجة الأولى، أو حتى أبعد من ذلك ، ومهما أدى هذا الزواج من خدمات للحكومة !!(٤٨). ومن الغريب أن يؤكد الإمبراطور ذلك بإلحاح ، بينما يبارك زواج أخته «أنّا» Anna من لويس الثالث ملك إيطاليا ، وزواج ابنه رومانوس من ابنة الملك هيو . ولاشك أن هذه الزيجات الثلاث ، رغم ما يقوله قسطنطين ، كانت عملا من أعمال الدبلوماسية البارعة والحتمية آنذاك (٤٩).

ولن تمضى على ذلك سنوات قلائل ، حتى يقوم حفيده الإمبراطور باسل الثانى بنقض هذه القاعدة والخروج عليها، عندما يتعرض فى سنة ٩٨٨ للفتنة الداخلية التى أشعلها ضده بارداس فوقاس Bardas Phocas فى الوقت الذى كان البلغار يهددون حدود الإمبراطورية، والخليفة الفاطمى العزيز بالله يعد أسطوله لمهاجمة السواحل البيزنطية ، فلم يجد باسل الثانى أمامه إلا الاستعانة بالأمير الروسى فلاديمير Vladimir الذى سير إليه قوة عسكرية قوامها ستة آلاف جندى ، ساعدته فى الخروج من هذا المأزق ، وكان ذلك مقابل الزواج من الأميرة «أنّا» Anna أخت الإمبراطور . ورغم أن باسل حاول أن ينكص على عقبيه، التزاما بالتقليد البيزنطى، بعد أن تم له القضاء على ثورة بارداس ، إلا أن فلاديمير اضطره إلى الوفاء بما عاهد عليه الأمير، وتم تعميد هذا العاهل الروسى وزواجه من الأميرة البيزنطية .

وفى القرن الثانى عشر ، أصهر الإمبراطور يوحنا كومننوس إلى البيت المالك الهنغارى ، بينما كانت أزواج ابنه مانويل كلهن من الغرب ، وأولاهن «برتا» Bertha من سولزباخ Sulz-bach أخت زوجة كونراد الثالث الملك الألمانى . بل إن الإمبراطور مانويل كومننوس هذا، أقدم على وضع خطة دبلوماسية بارعة ، يستهدف بها ضم المجر إلى الإمبراطورية، وذلك بسعيه

٤٨- Id .

٤٩- Jenkins, Byzantium, p. 262 .

لزواج ابنته من الأمير «بيلا» Bela وريث العرش الهنغارى . ولم يحل دون إتمام هذه الزيجة ، إلا مولد إبنه ألكسيوس (الثانى) .

ومن الملاحظ أن عدد الزيجات السياسية قد ارتفع فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى ، بين البيت الإمبراطورى ، والعائلات الملكية الصلقبية أو الغربية، على خلاف ما كان سائدا فى القرون الأولى، حيث كان التقليد البيزنطى مرعيا إلى حد كبير من جانب الأباطرة . ويعود هذا بالطبع إلى قدوم عدد من ملوك أوروبا وأمرائها إلى الشرق مروراً بالقسطنطينية ، على رأس حملاتهم الصليبية ، وازدياد علاقتهم بالإمبراطورية سلبا أو إيجابا ، فى الوقت الذى راحت فيه بيزنطة تخث الخطى نحو الانهيار ، ويزداد اعتمادها على الجند المرتزقة من الغرب الأوربى خاصة الانجليز والاسكندنافيين بالإضافة إلى الصقالبة ، ليشكل هؤلاء من بعد ، القوة الرئيسية للحرس الإمبراطورى ، حتى عرفوا باسم «الورنك» Varangians وأطلق ذلك أيضا على الطريق الذى كانوا يسلكونه إلى القسطنطينية ، فذاع باسم «طريق الورنك» Va-rangian route . وعلى هذا نرى أنه بالرغم من أن المبادئ الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغيير ، إلا أنها كانت غالبا ما تتسم بالمرونة عند تطبيقها ، لتتمشى مع الظروف المتغيرة . وليس أدل على ذلك من أنه خلال القرن الرابع عشر ، أقدم الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس Ioannes VI Cantacuzenus فى ظل الظروف السياسية المتدهورة فى الداخل ، والصراع الدائر حول العرش ، إلى أن يعطى يد ابنته إلى الأمير العثمانى المسلم أورخان Orchan ليحصل على عونه فى الحرب الأهلية الدائرة مع أسرة باليولوجوس Pa-laeologus .

وإذا كان الزواج السياسى بما أداه من خدمات للإمبراطورية، كدعامة من دعائم دبلوماسيتها ، يعطينا صورة جلية عن أطر الفكر السياسى الرومانى حيال هذه الشعوب ، فإن جانبا آخر من جوانب الدبلوماسية يدعم هذا الاتجاه : ذلك أن الوفود الرسمية التى كانت تقدم على العاصمة الإمبراطورية ، يأخذ بألبابها ثراء المدينة وبهاؤها ، وما كانت عليه من الترف فى الدور والقصور والكنائس والأبنية العامة، إذ يعمد الوفد البيزنطى المرافق لهؤلاء القادمين، إلى المرور بهم عبر أجمل شوارع المدينة، فإذا ما زاغت منهم الأبصار ، وبلغ بهم العجب مبلغه عند نهاية التطواف ، وجدوا أنفسهم وقد تمت استضافتهم فى قصر فخيم من القصور الإمبراطورية ، وقبل أن يفيقوا يخلع عليهم الإمبراطور الخلع الثمينة والهدايا[٥٠] وهذا هو

-٥٠ D. A. I., LIII .

أجاثياس Agathias يصف لنا قسطنطينية جوستنيان فى القرن السادس الميلادى بقوله، إنها كانت تزخر بالعديد من زعماء الشعوب المجاورة للإمبراطورية ، تصحبهم نساؤهم وبنوهم وخاصتهم وخادموهم ، فتتمثل المدنية لأعين الرائين معرضا يضم أزياء الدنيا ، وألسنة الأمم جميعا !! يلقون الترحيب على أكمل وجه ، وهم يسيرون وسط العاصمة وقد امتطوا صهوات جيادهم، يحف بهم الفرسان من حملة الأعلام ونافخى الأبواق فى منظر يأخذ بالألباب»[٥١].

ولاشك أن هذه المظاهر البراقة ، كانت تترك بصماتها واضحة على هؤلاء الذين سرعان ما ينقلبون سفراء لبيزنطة لدى دولهم، وليس أدل على ذلك مما تتناقله الروايات عن الأمير الروسى فلاديمير ، الذى قيل إنه أرسل مبعوثيه إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والأرثوذكسية فى القسطنطينية ، والمسلمين، واليهود الخزر ، للوقوف على أى العقائد ينتهجون !! فلما عادوا جميعا وراحوا يقدمون تقاريرهم ، قال الذين جاءوا إلى القسطنطينية ، «قادتنا اليونان (البيزنطيون) إلى الدور التى يعبدون فيها الله، فلم ندر أفى السماء كنا أم على الأرض؟! فإذا كانت الأخيرة ، فليس هناك ما هو أفخم ولا أعظم من ذلك ، ونحن إزاءه عاجزون عن الوصف ، كل ما يمكننا قوله أيها المليك .. إن الله يقيم وسط هؤلاء الناس»[٥٢] ولايقل ما جاء فى تقرير ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona الذى قدم مبعوثا من قبل الملك اللومباردى برنجار سنة ٩٤٩ ، فى رحلته الأولى إلى القسطنطينية ، شيئا عن تلك الأسطورة !

ويفيض الكتاب الذى وضعه قسطنطين السابع «عن المراسم De Cermoniis والكثير من فصول كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية» بالصور الحية التى تصف استقبال القسطنطينية للعديد من وفود الدول الأجنبية والشعوب المجاورة التى كانت ترد إليها [٥٣]، ومنها ندرك أن مظاهر الترحيب والاحتفال كانت تزداد مع القادمين من مناطق جديدة ترغب إدارة الخارجية البيزنطية فى كسب ولائهم؛ من ذلك مثلا ما حدث للأميرة الروسية أولجا Olga التى زارت القسطنطينية عام ٩٥٧ ، مصطحبة معها حاشية ضخمة وقسيسها جريجورى الذى كان يعلمها

٥١- AGATH . historia, 172 .

٥٢- Dvornik , intelligence Sevices p. 176 .

٥٣- De Cermoniis, I , 89-90 ; II , 15 , Cited in Dvornik , intelligence Services . p. 175 .

المسيحية فى «كييف» Kiev، فقد دعيت لتتخذ مجلسها إلى جوار الإمبراطور، وخلع عليها الكثير من الهدايا القيمة عند اجراء طقوس عمادها .

ومن الجدير بالذكر أن تعليمات إدارة الخارجية البيزنطية ، كانت صريحة بضرورة عدم السماح لأى سفير من هؤلاء ، أو قادم رسمى بالتجول فى المدينة وحده دون حرس أو وفد مرافق ، أو الاطلاع على شئ مما ترغب الحكومة فى إخفائه عن الأعين. ومن ثم كان لابد أن يحف بهم الحرس منذ قدومهم وحتى ارتحالهم عن القسطنطينية [٥٤]، مع الحرص على أن يبدو ذلك فى ظاهره نوعا من التكريم ، وإن كان فى جوهره نوعا من الرقابة الصارمة على تصرفات هؤلاء السفراء ، يزيدها حدة ما كان يجرى من وضع عدد من الخدم تحت تصرفهم ، تنحصر مهامهم الرئيسية الخفية فى الحصول على أى نوع من المعلومات عن الوفد المرافق للسفير . وقد عبر عن ذلك أحسن تعبير ، ليوتبراند ، سالف الذكر ، وذلك فى تقريره الذى كتبه عن زيارته الثانية للقسطنطينية ، مبعوثا هذه المرة للملك الألمانى امبراطور الرومان، أوتو الأول . وكانت شكواه بصفة خاصة أيضا مما لقيه عند مغادرته العاصمة الإمبراطورية ، من تفتيش دقيق لكل ما يحمل من جانب موظفى الجمارك [٥٥].

وقد درجت بيزنطة إلى جانب استقبال هؤلاء السفراء إلى استضافة أبناء الأمراء والحكام المجاورين ، وذلك فى البلاط البيزنطى، وإحاطتهم بهالة من مظاهر العظمة والفخامة ، والترحيب بضحايا الحروب الأهلية فى الدول الخارجية كلاجئين سياسيين يمكن الاعتماد عليهم عند الضرورة لمصلحة السياسة البيزنطية. بل إن بيزنطة كانت تلح فى بعض الأحيان على عدد من الزعماء لزيارتها ، من ذلك مثلا ما جرى مع أمير طارون Taron[٥٦].

وتنوعت وسائل الإغراء والترغيب لهؤلاء السفراء الأجانب ، حتى ينقلبوا - كما ذكرنا- ممثلين لبيزنطة لدى دولهم، وكان الفارق الحضارى الكبير بين الإمبراطورية وهذه الشعوب المجاورة ، باستثناء الفرس والمسلمين كما قدمنا، عاملا هاما وسلاحا فعالا فى نجاح هذا

٥٤- Dvornik. Loc. cit .

٥٥- راجع نص التقرير فى مجموعة الوثائق الخاصة بالعصور الوسطى التى ضمها كتاب .
Cantor , The Middle Ages. New York 1964 .

٥٦- D. A . I. , XLIII

الأسلوب التأثيرى. فاستخدمت وسائل الترفيه والتسلية مع بعض الوفود [٥٧]، وجرى الإنعام على الموالين منهم بألقاب التشريف التى كان من أبرزها Hypatus و Patricias و Magister إلى الحد الذى دفع هؤلاء الزعماء إلى التنافس فيما بينهم للحصول على المزيد من الهبات أو الأموال أو الألقاب من الإمبراطور[٥٨] ويضرب قسطنطين السابع المثل على ذلك بأهالى خرسون Cherson ، حين أنعم عليهم بألف رتبة عسكرية من درجة «رماة السهام» ، مع التأكيد بدوام إرسال المنح إليهم بانتظام [٥٩].وكيف لايتنافس القوم ، وهذه الألقاب كانت تجعل منهم أنصاف رومان «بسلوك متحضر ووقار لاتينى» [٦٠]، ولافرق فى ذلك بين الأمير البربرى فى أى منطقة ودوج البندقية الذى كان شغوفا لحمل لقب «بطريق» . كما كان الكثير من الأمراء حريصين على أن يتسلموا من يد الإمبراطور شخصيا ، أشعرة السلطة الملكية مثل التاج الذهبى والرداء الحريرى المطرز بالذهب ، والذى يظهر الأمير من وجهة نظره شبيها بـ«البازيليوس» Basileus أى الإمبراطور البيزنطى [٦١].

وكانت العباءة الأرجوانية الإمبراطورية بصفة خاصة ، تمثل لدى هؤلاء الأمراء شيئا رفيعا ، ومن ثم فلاغرو أن نجدهم يتهافتون للحصول على مثلها . لكن هذا كان يعد فى نظر الرومان امتهانا للتقاليد الإمبراطورية [٦٢]، إذ أن هذه العباءة من حق الإمبراطور وحده ، وإذا كانت

٥٧- Ibid . LIII .

٥٨- Ibid. XLIII - XLIV , XLVI - L , LI .

٥٩- Ibid . LIII .

٦٠- Diehl , Byzantium, p. 56 .

٦١- يتحدث قسطنطين السابع عن البشناق ، ويصفهم بأنهم طماعون جشعون ، لايؤدون خدمة لأى فرد دون مقابل، ولايخجلون من كثرة طلبهم للهدايا والأشياء التى يندر وجودها عندهم لأنفسهم وزوجاتهم . كما يطلبها الشخص المرافق للمندوب الإمبراطورى ، لنفسه ، لقاء جهده فى مرافقته واستخدام دوابه . ويقول إنه عندما يصل المندوب الإمبراطورى إلى بلادهم يكون أول سؤال يوجهونه إليه ، يدور حول هدايا الإمبراطور لهم، ثم يعودون فيسألونه عن هدايا زوجاتهم ووالديهم ».

انظر . D. A I . , VI , VII

٦٢- كانت الأشعرة والاردية الإمبراطورية، شيئا خاصا بالإمبراطور نفسه دون غيره من الناس مهما =

الدبلوماسية قد وجدت فى هذه المظاهر ما يحقق لصانعيها السيادة على هذه الشعوب ، إلا أن ذلك يجب أن يظل فى إطار معين لايتعداه . كان من الجائز إهداء اردية قريبة الشبه ، لكنها ليست مثل الأردية الإمبراطورية تماما، وهذه الحقيقة لم يغفلها قسطنطين وهو يعظ ابنه بقوله : «إذا ما أقدم الخزر أو الأتراك أو الروس أو غيرهم من الشماليين والاسكيزيين Scythians على طلب ما اعتادوا عليه دوما، أعنى بعض الأردية الإمبراطورية أو التيجان أو الثياب الرسمية ، لقاء بعض خدمات يؤدونها فليكن قولك إن هذه الثياب أو التيجان ، لم تصنعها يد إنسان ، ولا زينتها فنون بشر، بل تنبئنا قصص التاريخ أن الله عندما اختار قسطنطين العظيم امبراطورا ، فكان أول امبراطور مسيحى [٦٣]، أنعم عليه بهذه الثياب عن طريق ملاكه، وكذا التيجان ، وعهد إليه أن يضعها فى الكنيسة المقدسة العظمى، أيا صوفيا ... وعلى المنضدة المقدسة حفرت هذه العبارات .. «إذا ما سولت لأى إمبراطور نفسه أن يعطى شيئا من هذه الثياب لغيره ، حلت به اللعنة كخصم لله وعدو ، واستوجب صدور قرار الحرم الكنسى »[٦٤].

ويبين من حديث قسطنطين السابع مدى الإحساس بـ «التفوق» الرومانى، الذى يصل إلى درجة «الشعب المختار» ، وهى الفكرة التى يعود بها أو بلنسكى[٦٥] عند الرومان إلى جذور يهودية مسيحية ، متناغمة مع «العالمية» الرومانية ، والثقافة الأصيلة المستمدة من

= علت مكانتهم أو سمت أصولهم، ولايسمح لأى إنسان آخر بارتدائها، لما فى ذلك من اعتداء على الحقوق الإمبراطورية. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، ما حدث لبطريرك القسطنطينية فى القرن الحادى عشر، ميخائيل كريولاريوس Michael Cerularius عندما أقدم على انتعال «الصندل» الإمبراطورى، منتهزا فرصة ضعف السلطة الإمبراطورية واضطراب الأمور على عهد إسحق كومننوس . وكان هذا يعنى مظهرا من المنافسة التدريجية للإمبراطور فى سلطانه، لابد تتلوها خطوات أخرى كما كان يؤمل البطريرك، مما دفع الإمبراطور إلى الأمر بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة، ولم ينقذه من ذلك سوى موت الإمبراطور.أنظر PSELL . Chron . VI

٦٣- اختلف المؤرخون ولايزالون ، حول مسيحية قسطنطين ، منهم من رفعه مكانا عليا فجعله أحد حواريى المسيح ، وأولئك هم مؤرخو الكنيسة . وآخرون يجعلونه أول امبراطور مسيحى ، جعل المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية. وبعض يجعله وثنيا مدافعا عن عقيدة الرومان الأسلاف . وفريق رابع يجعله امبراطوراً بلا دين . عن كل هذه الآراء ، ورأينا فى هذه القضية التاريخية الشائكة ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى قسطنطين ، دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢ .

٦٤- D . A . I ., XIII .

٦٥- Obolensky, Byzantine diplomacy , p. 56 .

الهللينية وهذا كله كان بالطبع كفيلا أن يجعل من الرومان فى نظر أنفسهم ، بل وفى نظر بعض معاصريهم أيضا ، «سادة» العالم فى زمانهم بلامنازع ، بحيث لايمكن لأى شعب من الشعوب الأخرى أن يطاولهم سمت الحضارة وعلو الهامة .

ويتصل بالهدايا والخلع والثياب والألقاب ، جانب آخر من أكثر العوامل تأثيرا واستخداما من لدن صانعى السياسة البيزنطية الخارجية ، ذلكم هو المال .. فقد كان الاعتقاد الراسخ لدى الرومان ، أن لكل إنسان ثمنه ، سواء كان أميرا بربريا لقبائل الهون Hunni الآسيوية ، أو كان جودفرى البويونى Godfrey du Bouillon دوق اللورين، أو بوهيمند Bohemund النورمانى ، وكلاهما من زعماء الحملة الصليبية الأولى المبرزين ! فالمال - على حد تعبير شارل ديل -[٦٦] هو أسرع السبل وأقصرها طريقا للتأثير على هذه الشعوب المجاورة لبيزنطة، ومن ثم كان ينظر إلى المال من وجهة نظر الدبلوماسيين البيزنطيين ، على أنه سلاح لايمكن مقاومته ، وأثبتت الأحداث فعلا صدق نظرتهم . ولقد دفعت الحكومة البيزنطية مبالغ طائلة من الأموال منذ عهد جوستنيان فى القرن السادس ، وحتى باسل الثانى فى القرن الحادى عشر، بل وبعد ذلك بقرنين آخرين أيضا لضمان ولاء هذه الشعوب المجاورة ، أو لتنفيذ مآربها السياسية الخارجية ضد دول أخرى ، أو على الأقل - وهو كثير - لضمان سكوتها وحَيْدتها إبان حروبها مع أعدائها . ويكفى أن نقرأ ما كتبه مؤرخ القرن السادس الأشهر ، بروكوبيوس Procopius القيسارى فى كتابه «التاريخ السرى» Historia Arcana لندرك حجم المبالغ التى أنفقها الإمبراطور جوستنيان لاستمالة أمراء الهون والبربر والحبشة واللومبارد والجبيد والهيروليين والآفار والإيبريين . بل إن ما قدمه لخزانة الملك الفارسى يكاد يعدل ما قدم لهؤلاء جميعا !! ومن ثم لم يسلم من النقد اللاذع الذى وجهه إليه بروكوبيوس فى كتابه . وجرى نفس الحال مع المؤرخ نيقتاس الخونياتى عندما صب جام غضبه ولومه على الإمبراطور مانويل كومننوس ، للأموال التى بددها دون طائل على اللاتين فى إيطاليا والنورمان فى صقلية ، إلى الحد الذى يحمله فيه نيقتاس مسئولية الكارثة التى حلت بالإمبراطورية بعد وفاته بسنوات قلائل ، عندما تعرضت للسقوط فى أيدى اللاتين عام ١٢٠٤ بفعل جنود الحملة الصليبية الرابعة ، وفعال البابوية والبندقية والإمبراطورية فى الغرب جميعا [٦٧].

٦٦- Diehl, Byzantium, p. 55 .

٦٧- للوقوف على تفصيلات هذه الأحداث ، يمكن الرجوع إلى المصدر المعاصر الذى تناولها وكتبه شاهد عيان وهو : روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ .

وقد استخدمت هذه الأموال فى كثير من الأحيان ، لإيقاع الفرقة والانقسام بين القبائل المجاورة ، وأفلحت الدبلوماسية البيزنطية فى هذا الميدان وحققت نجاحا كبيرا باعتمادها على الأموال، لتطبيق المبدأ الشهير الذى كان يؤمن به الرومان .. «فرق تسد». وكان هذا أمرا لامندوحة عنه كى تستطيع الإمبراطورية مواجهة التهديدات التى تحقيق بها من جانب الجماعات القبلية العديدة التى هطلت عليها منذ القرن الرابع وحتى العاشر الميلادى.

ويعطينا قسطنطين السابع تصويرا واقعيا للدبلوماسية البيزنطية ، فيما يتعلق بما يجب على ابنه أن يفعله إزاء القبائل المجاورة للإمبراطورية فى زمانه، وهو يعد من أهم ما جاء فى كتابه «عن الإدارة الإمبراطورية».. فبيزنطة تخشى البشناق Pechenegs الذين كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من مصب نهر الدنيبر Dnieper متجهة غربا إلى فم الدانوب Danupe، ويمثلون فى الوقت نفسه مفتاح العلاقات السياسية لبيزنطة مع بلاد الخزر Chazaria والروس والبلغار والهنغاريين. والإمبراطورية مع خشيتها من البشناق، تخاف الروس والأتراك ، لكن خشيتها من البشناق تفوق خوفها من الأخيرين ؛ لذا فإن بقاء الإمبراطورية على سلام معهم ، يضمن عدم تعرض الأراضى الرومانية لهجمات الروس والأتراك ، وعدم مطالبتهم بفدية ضخمة من الرومان لقاء السلام. وإذا ازدادت العلاقات وثوقا بين البشناق وبيزنطة عن طريق استمالتهم بالهدايا ، أمكن بسهولة للبيزنطيين القفز على أراضى الروس والأتراك، واستعباد نسائهم وأطفالهم وتدمير أراضيهم- والحديث هنا لقسطنطين السابع- لذا كان ضروريا إرسال مندوبى الإمبراطور سنويا إلى البشناق محملين بالهدايا والأموال لتجديد الاتفاق معهم وضمان الموالاة(٦٨).

كان البشناق فى نظر قسطنطين السابع ، قادرين على خوض الحرب ضد الروس والبلغار والأتراك ، ولذا وجب استرضاؤهم كل عام (٦٩). وحتى لاتقع السياسة البيزنطية على هذا النحو تحت رحمة البشناق ، فإنه يصبح من الضرورى استمالة «الغز» Uzes إلى جانب الإمبراطورية، لأنه بمقدور هؤلاء مهاجمة البشناق(٧٠) والخزر(٧١) على حد سواء. والدبلوماسية

٦٨- D. A. I., II- IV .

٦٩- Ibid. VIII, XXXVII .

٧٠- Ibid. IX .

٧١- Ibid. X .

تؤدى دورها بنجاح كبير فى هذا السبيل ، فتشجع الصرب Serbs ضد البلغار [٧٢]، وتؤلب الخزر سونيين على السارماثيين[٧٣] Sarmatians وتبحث عن حليف جديد تثيره ضد البشناق ، فتجده فى المجيار، فترسل إليهم سفارتين خلال عامى ٨٩٤ ، ٩٢٧ تهدف من ورائها إلى حث هؤلاء على مهاجمة البشناق [٧٤].

ولم يكن قسطنطين السابع فيما أورده مبتدعا ، ولاواضعا لقواعد الدبلوماسية البيزنطية ، كما ذكرنا من قبل ، لكنه كان يرصد ويسجل تجارب السابقين من الأباطرة الأسلاف ، الذين وضعوا هذه القواعد موضع التنفيذ ، وبلغوا فى تطبيقها مبلغا من النجاح كان كبيرا ، فها هو الإمبراطور زينون Zeno فى أخريات القرن الخامس الميلادى، لايرى أمامه سبيلا كى ينقذ القسطنطينية من ضربات قبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الموجعة ، إلا أن يوجه زعيمهم ثيودوريك Theodoric صوب إيطاليا ، التى كانت قاعدة الإمبراطورية الرومانية قديما ، والتى ضاعت منذ سنوات قلائل(٤٧٦) على يد القائد الجرمانى أودواكر Odovacer فضرب بذلك العناصر الجرمانية ببعضها لتخلص له القسطنطينية وأرباضها .

وقد طبق الإمبراطور جوستنيان ، أستاذ الدبلوماسية البيزنطية بلا منازع ، هذه السياسة ببراعة كبيرة فى المناطق الشمالية والشرقية ، فراح رجاله يؤلبون القبائل ضد بعضها ، ويؤججون نيران التنافس الذى يصل إلى حد الكراهية فيما بينهم ، فيستبقون للحصول على عون بيزنطة ضد بعضهم بعضا، وليس أيسر من ذلك لضمان خضوع شعوب هذه المناطق [٧٥]. هذا فى الوقت الذى حرص فيه على استرداد ولايات الغرب الرومانى التى استولى عليها الجرمان، وأقاموا عليها ممالك لهم، وشراء سكوت الفرس بجزية سنوية ضخمة يؤديها ، وأفلحت

٧٢- Ibid. XXXII .

٧٣- Ibid . LIII .

٧٤- Ibid . XXXVIII - XL ويمكن مراجعة أحداث هذه الفترة الهامة فى تاريخ الدبلوماسية البيزنطية من خلال علاقات بيزنطة مع الشعوب المجاورة ، فى Obolensky , The Byzantine Commonwelth, London 1971 ; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, Oxford 1965 ; Vasiliev, A History of the Byzantine Empire, vol . 2 , Madison and Milwauke, 1964 .

٧٥- AGATH. historia, pp. 332-333 .

أموالهودسائسه ومظاهر العظمة البادية فى عاصمته وجيوشه فى إخضاع المناطق الواقعة إلى الشمال من حدود الإمبراطورية ، لسلطانه ، واسترداد أفريقيا وإيطاليا وأجزاء من إسبانيا .

وتمدنا المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة ، بمعلومات وفيرة عن السياسة التى اتبعها جوستنيان تجاه القبائل النازلة إلى الشمال الشرقى من الحدود الإمبراطورية، خاصة منطقة شبه جزيرة القرم والمناطق المحيطة بالبحر الأسود ونهر الدانوب؛ فقد راح يؤلب بعض عشائر القوط، الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية ، ضد الهون الوثنيين ، حيث استقبل منهم وفدا قدم إلى القسطنطينية سرا ، وعهد إليهم القيام بتدبير الفتن والمؤامرات وإثارة الاضطرابات فى صفوف الهون[٧٦] بل استخدم بطون الهون ضد بعضهم ، فأوعز إلى جماعة أوتيجور Utigur بمهاجمة جماعات الكوتريجور Kotrigurs بحجة الحصول على كنوز الذهب التى استولى عليها الأخيرون من أراضى الإمبراطورية، وابتعلت الجماعة الأولى طعم الخديعة ، ونجحت الدبلوماسية هنا فى الخلاص منهما معا بأيديهما [٧٧]. وعلى جبهة الدانوب استقطبت الإمبراطورية قبائل الأنطاى Antae وأغدقت عليهم الأموال لتوجههم ضد البلغار[٧٨] ، ولم يجد جوستنيان ما يمنعه من أن يستخدم قبائل الآفار Avares من بعد ضد الأنطاى أنفسهم ، عندما دعت الضرورة إلى ذلك !! [٧٩].

وقد انتهج الإمبراطور موريس Mauricius فى أواخر القرن السادس، السياسة نفسها فى تحريض ملك الفرنجة «شيلدبرت Childebert ضد اللومبارديين Lombards لقاء مبلغ ضخم من المال. ودارت المراسلات فى القرن التاسع بين الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilus العمورى، وبابك الخرمى، الذى أشعل نيران التمرد ضد العباسيين على عهد الخليفة المعتصم

٧٦- PROCOP . de bello Gothico, IV , 474 .

٧٧- AGATH . hisroria , pp. 330-335 .

وأيضا MENAN. excer . Legat . Rom. p. 345 .

٧٨- PROCOP. de bello Gothico, VII , 273 .

٧٩- MENAN . excer. Legat . Rom . p. 344 .

وأيضا MALAL . Chron . p. 489 .

وكذلك EVAG. historia ecclesiastica, p. 425 .

بالله ، وتم الاتفاق على إعلان الفتنة فى الداخل بينما تتقدم جيوش البيزنطيين باتجاه الحدود الإسلامية ، ليقع المعتصم بين شقى الرحى، لكن المعتصم فطن إلى هذه الخطة وفوت على الإمبراطورية الفرصة، حين بادر أولا بالقضاء على فتنة بابك الرخمى ، قبل أن تتصل قواته بقوات ثيوفيلوس ، مما دفع الأخير إلى تخريب بعض المدن الإسلامية فى آسيا الصغرى ، ومن بينها «زبطرة» التى يقال إنها كانت مسقط رأس المعتصم . وقد قام الخليفة العباسى بملاحقة جيوش ثيوفيلوس ودمر مدينة «عمورية» التى ينتسب إليها الإمبراطور ، ليمتدحه شاعر العربية أبو تمام ببائيته الشهيرة .

وما فعلته الأسرة المقدونية بعد ذلك خلال القرن العاشر ، من استغلال الصراعات القائمة بين المسلمين ، خاصة خلافتى بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية ، لضرب القوى الإسلامية التى كانت تهدد الحدود والمصالح البيزنطية فى بلاد الشام ، شئ لايمكن تجاهله . ولعل أبرزها ما كان حادثا بالفعل بين الحمدانيين والبيزنطيين ، بينما يقف العباسيون والفاطميون موقف المتفرج ، بل ويظهرون الرضى لتحطيم قوة الحمدانيين على يد البيزنطيين ، الذين أفلحوا عن طريق استغلال هذا الموقف فى الوصول بجيوشهم إلى تخوم بيت المقدس .

وقد تعرضت الإمبراطورية فى آخر سنى القرن الحادى عشر لكارثة خطيرة كادت تودى بها ، ممثلة فى الحملات الصليبية التى وضعت فى اعتبارها منذ البداية الاستيلاء على القسطنطينية. ولولا الدبلوماسية البارعة التى مارسها آل كومنين الثلاثة ، ألكسيوس الأول Alexius وابنه يوحنا وحفيده مانويل، لتعرضت الإمبراطورية للضياع منذ السنوات الأولى للحروب الصليبية ، وكما حدث لها بالفعل من بعد سنة ١٢٠٤ . ويكفى أن نقرأ فقط ما كتبته الأميرة «أنّا كومننا» Anna Comnena إبنة ألكسيوس فى كتابها الـ «ألكسياد» Alexiad عن وسائل الدبلوماسية التى استخدمها أبوها مع زعماء الحملة الصليبية الأولى، بإغداق الأموال والهدايا والخلع والألقاب ، ومنح الإقطاعات ، والتقريب ، وتحريض بعضهم ضد بعض. وكان أبرز مثالين واضحين لذلك، موقفه حيال كل من بوهيمند النورمانى وريموند أمير تولوز، وليس ببعيد عن ذلك ما فعله حفيده مانويل مع كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ، اللذين قادا الحملة الصليبية الثانية .

وإلى قلب أوروبا الغربية وصلت أصابع الدبلوماسية البيزنطية فى القرن الثالث عشر ، عندما ازدادت حدة التوتر بين الإمبراطور البيزنطى مانويل كومننوس، والملك الألمانى فردريك برباروسا ، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب، بعد أن نظر الأخير إلى نفسه

باعتباره الإمبراطور الشرعى للرومان ، ضاربا عرض الحائط بالشرعية والحقوق التاريخية لأباطرة الرومان فى الشرق. ومن ثم دارت المراسلات بين كل من مانويل كومننوس والأمير هنرى الأسد دوق سكسونيا ، والذى كان يعد أحد الأقصال الإقطاعيين لفردريك بربروسا ، ويحمل فى الوقت ذاته العداء التقليدى القائم بين عائلته «الولفيين» وعائلة «الهوهنشتاوفن» التى ينتمى إليها فردريك، ولذا فقد استقبل فى بلاطه فى سكسونيا ، سفراء من لدن الإمبراطور البيزنطى ، من وراء ظهر الملك الألمانى، ورفض مرافقة سيده فى حملته الخامسة إلى إيطاليا، مما أدى إلى هزيمة فردريك عند ليانو Legnano سنة ١١٧٦ على يد مدن العصبة اللومباردية[٨٠]. بل إن مانويل استخدم أمواله وسلاحه أيضا لإثارة النورمان فى صقلية ضد النفوذ الألمانى .

وحتى القرن الثالث عشر ، والإمبراطورية البيزنطية العائدة على يد ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus ظلت سياسة «فرق تسد» ، تتصدر قائمة عمد الدبلوماسية ، فى وقت عانت فيه الخزانة النقص الكامل فى الموارد المالية ، فمنح الجنوية امتيازات ضخمة فى القسطنطينية ، ليضرب بهم المصالح التجارية والسياسية لجمهورية البندقية ، التى كانت سببا رئيسيا فى سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، ونجح بذلك فى استعادة الإمبراطورية . ولما وجد نفسه من جراء هذا فى مواجهة حلف كونه شارل كونت أنجو، الذى احتل صقلية بدعوة من البابوية للقضاء على بقايا أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية فى الجزيرة ، ويضم هذا الحلف، البابوية ، وبلدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية اللاتينى المخلوع، ووليم فيلهاردوان، الذى كان قد هزم مؤخرا على يد ميخائيل فى المورة ،والبلغار، أدرك ميخائيل أن السلاح التقليدى للخارجية البيزنطية ، وهو الدبلوماسية البارعة ، خير وسيلة للإفلات من هذا الخطر ، فوجه القبيلة الذهبية المغولية ضد البلغار ، وسلاجقة الروم والمجيار ضد الصرب ، وصادق لويس التاسع نفسه وهو الذى كان أخا لشارل كونت أنجو ، وأعان الصقليين ضد ملكهم الفرنسى ، فانفرط عقد الحلف .

٨٠- راجع هذه الأحداث وتفصيلاتها فى:

Brooke , A history of Europe from 911 to 1198 , pp. 51 , 501 - 503 .

وراجع أيضا للباحث : الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى ، مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى ، ص١٢٤-١٢٧ .

ولكى تصبح هذه الوسائل الدبلوماسية ناجعة ، كان لابد أن يدعمها صانعوها بإقامة حائط بشرى دفاعى على امتداد حدود الإمبراطورية ، يقى جسم الدولة الرئيسى نفسه مغبة هذه الهجمات التى لاتنقطع ، وتمثل ذلك فى حرص بيزنطة على وجود عدد من «الدول الحاجزة» فى المناطق التى تتعرض بصفة دائمة للأخطار؛ فالغساسنة على الحدود الشرقية أدوا دورهم كاملا لزمن طويل ، دفاعا عن الإمبراطورية ، فى مواجهة الاعتداءات الفارسية المستترة وراء دولة اللخميين المناذرة . وجماعات الآلان Alan كانت تشكل قوة متقدمة لمراقبة ما يجرى فى المنطقة القوقازية ، وكان لهم فضل إطلاع بيزنطة على كثير من التحركات العسكرية الفارسية تجاه حدود الإمبراطورية[٨١]. والقوط الغربيون Visigoths أمل بهم الإمبراطور فالنز Valens فى سبعينيات القرن الرابع ، أن يشكلوا درعا واقيا يحمى منطقة البلقان من غزو الهون الآسيويين . والبشناق والصرب والبلغار والأرمن ، قاموا جميعا بنفس الدور فى فترات التاريخ البيزنطى المختلفة . ولعل هذه الناحية تتضح أهميتها بصفة خاصة منذ القرن الحادى عشر الميلادى، عندما أهملت الإمبراطورية سياسة إقامة الدول الحاجزة، بل وساهمت بنوع من قصر النظر السياسى عند بعض أباطرتها ، لتحقيق نفوذ أكثر إتساعا، فى هذا الخسران ، عندما اجتاحت جيوشها أرمينيا وضمتها للإمبراطورية، وحولت بلغاريا إلى ولايتين بيزنطيتين ، فأصبحت البيزنطية فى الشرق والشمال الغربى مكشوفة مباشرة لشعوب أخرى تقع خلف هاتين الدولتين ، وتتأهب للقفز على بيزنطة .

وفى إطار هذه السياسة الذكية ، كانت الدعامة الرئيسية فى الأعمال الحربية للإمبراطورية، تتمثل فى حرص إدارة الخارجية فى القسطنطينية على تجنب الدخول فى حرب على جبهتين فى وقت واحد ، إذ كان ذلك يشكل خطرا مدلهما؛ فمع تكاثر الأعداء الذين أحاطوا بالإمبراطورية من كل جانب ، كان يبدو مستحيلا مواجهة هؤلاء جميعا دفعة واحدة ، أو العمل على جبهتين بنجاح تام فى كل منهما، لذا كان نجاح الدبلوماسية هنا كبيرا . فإذا كان عليها أن تحرك قواها العسكرية فى ناحية معينة ، كان عليها بالتالى أن تسخر جهودها الدبلوماسية لتحقيق نصر سياسى فى الناحية الأخرى ، ربما لايقل عن النصر العسكرى .

وكان الإمبراطور جوستنيان مثالا يحتذى فى تطبيق هذه القاعدة فمع طموحاته الواسعة لاسترداد الولايات الرومانية فى الغرب، المتطابقة مع الفكر السياسى الرومانى القائم على

٨١- Dvornik , intelligence Services, p. 170 .

عالمية الإمبراطورية ووحدتها وتوحدها ، والتى عبر عنها بوضوح فى احدى تشريعاته بقوله : «لدينا أمل كبير فى أن يأذن الله لنا باسترداد أراضى الإمبراطورية الرومانية القديمة التى من جراء التراخى ضاعت »(٨٢). إلا أنه لم يكن بغافل عن الأطماع الفارسية فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية : فالفرس كان يعنيهم فى المقام الأول ، إلى جانب التوسع السياسى والنفع الاقتصادى ، الوصول إلى مركز الثقل الحضارى فى العالم آنذاك ، أعنى البحر المتوسط، وهو ما كانت الإمبراطورية البيزنطية تعتبره حقا خاصا بها . ومن ثم فإنه لأهمية هذا الصراع الذى يبدو فى ظاهره سياسيا واقتصاديا ، وفى جوهره حضاريا ، حرص جوستنيان على أن لايدع الفرصة للفرس كى يحققوا مآربهم .

لهذا .. نرى جوستنيان يقدم فى السنوات الأولى من عهده على تحريك قواته العسكرية على جبهة الفرات ، دون أن يبغى من وراء ذلك اكتساب أراض جديدة ، بل فقط دفع الفرس إلى الدخول فى مفاوضات للتوصل إلى اتفاق يؤمن ظهره أثناء استدارته لحرب الجرمان ، وكان على استعداد لدفع جزية سنوية ضخمة للفرس لقاء أن يدعوه وشأنه لتحقيق آماله فى الغرب الإمبراطورى. ولم يكن ذلك يغيب عن بصيرة الفرس ، ولذا كثيرا ما نراهم يحركون مهماز جيوشهم على جبهة الفرات هم الآخرون ، ابتغاء مزيد من الأموال من الخزانة البيزنطية . بل إن أطرف ما يمكن أن يروى فى هذا السبيل ، ما ذكره بروكوبيوس من أنه عقب انتصار جوستنيان على الوندال Vandals فى شمال أفريقيا ، وعودة الولاية للسيادة الرومانية ، طالب ملك فارس بجزء من الأموال والغنائم باعتباره شريكا فى هذا النصر الذى تحقق لوقوفه على الحياد أثناء المعارك . وقد انصاع جوستنيان لمطالب الملك الفارسى من أجل استكمال مشروعاته فى الغرب، وإن كان قد اعتبر هذه الأموال نوعا من الهدية !!

ولعل هذه النظرة المتبادلة بين الجانبين تفسر لنا تجدد عقد «معاهدات السلام» بينهما أكثر من مرة ، وذلك فى أعوام ٥٣٢ ، ٥٤٥ ، ٥٦٢ . وفى المعاهدة الأولى كان على بيزنطة أن تدفع لفارس سنويا أحد عشر ألف رطل من الذهب. وفى الأخيرة والتى أمل الجانبان أن تستمر خمسين عاما ، دفعت بيزنطة مقدما مبلغ ثلاثين ألف رطل من الذهب باعتباره أقساط سبع سنوات كاملة(٨٣) . وكان جوستنيان قد شغل نفسه ودولته وجيشه وخزانته على امتداد خمس

٨٢- IUS . novella XXX , 11 .

٨٣- PROCOP. de bello Goth, I, pp. 133.5. MENAN . excer. Legat . Rom. pp. 395-363 .

وعشرين سنة كاملة ، ابتداء من عام ٥٣٢ بالحرب فى محاولة لاسترداد النصف الغربى من الإمبراطورية، ولم يكن على استعداد أن يحارب الفرس والجرمان فى وقت واحد (٨٤).

وفى عام ٦٢٦ تعرضت الإمبراطورية لخطر مدلهم مزدوج : فالفرس اكتسحوا الولايات الشرقية للإمبراطورية، ووقفوا قبالة القسطنطينية على الشاطئ الآسيوى للبسفور ، بينما ألقى الآفار حصارهم عليها من الناحية الأخرى، فى الوقت الذى كانت الجيوش البيزنطية تعمل تحت قيادة الإمبراطور هرقل Heraclius على الأراضى الفارسية نفسها ، والعاصمة من الجند خالية . على أن الذى يعنينا هنا، أن هذا الحصار المزدوج كان اختباراً وتحديا حقيقيا للدبلوماسية البيزنطية لقهرها على التخلى عن قاعدتها الأساسية ، بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد. وفى سبيل ذلك وصل الفرس صفوفهم بالآفار ، بعد الدرس العملى الذى لقنوه زمن جوستنيان . غير أن الدبلوماسية البيزنطية فوتت على الفرس هدفهم، ونجحت فى عزل الآفار عنهم بوسائلها المعروفة ، واستخدمت الكروات لتحطيم شوكة الآفار (٨٥).

وتتجلى براعة الدبلوماسية فى الوقوف على الأهداف الحقيقية لأعدائها، ولنضرب على ذلك مثالا واحدا. ففى القرن الحادى عشر ، وقعت الإمبراطورية بين شقى الرحى، الأتراك السلاجقة من الشرق ، وذلك بعد انتصارهم بزعامة السلطان ألب أرسلان على الإمبراطورية فى موقعة مانزكرت عام ١٠٧١، ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes فى الأسر ، ومن الغرب كان النورمان . وأدركت إدارة الخارجية البيزنطية أن الخطر الحقيقى يتمثل فى هؤلاء الأخيرين، على الرغم من أن آسيا الصغرى كانت تعتبر من الناحية

٨٤- لدراسة نشاط جوستنيان العسكرى ، يفضل الرجوع ، بالإضافة إلى ما كتبه بروكوبيوس ، إلى المراجع الحديثة التالية .

Bury, history of the Later Roman Empire , vol. 2 . London 1931.

وأيضا Jones, Later Roman Empire , vol. I, Oxford 1964 .

وله كذلك The decline of theAncient world, London 1975 .

وراجع كذلك Holmes , The Age of Justinian and Theodora, 2 vols London 1912 .

٨٥- Dvornik , intelligence Services , p. 182 .

العملية فى قبضة السلاجقة لكن هؤلاء لم يكونوا قد وضعوا فى خطتهم حتى الآن، فكرة القفز على القسطنطينية ، بل كانوا مشغولين بإقامة إمبراطورية إسلامية فى ظل السيادة العباسية، ولم تأت الخطوة التالية بالاتجاه نحو الغرب إلا على عهد سلطانهم الأشهر ملكشاه ووزيره نظام الملك. أما النورمان فقد داعبتهم الآمال تحت زعامة عائلة هوتفيل Hauteville ممثلة فى روبرت جويسكارد Robert Guiscard وبوهيمند Bohemund من بعد ، حول إمكانية إقامة إمبراطورية نورمانية عاصمتها القسطنطينية ، ولم يذهب هذا التفكير من مخيلتهم حتى قيام الحروب الصليبية. لذا لم يتردد البيزنطيون لحظة فى مهادنة السلاجقة ، وتوجيه قواهم كلها للتصدى للخطر النورمانى ، مستعينين فى هذا المجال بقوات سلوجقية[٨٦].

ولو حاولنا أن نسير مع قسطنطين السابع فى عرض نماذج معينة لما تضمنه كتابه حول هذه القاعدة القاضية بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد ، لاحتاج الأمر إلى الكثير من الصفحات . فقد عرض لكثير من جوانب السياسة البيزنطية فى هذا السبيل، وبوجه خاص فى المنطقة الواقعة إلى الشمال من الحدود البيزنطية ، والتى كانت تشكل بؤرة اهتمام القسطنطينية فى القرن العاشر [٨٧].

والآن .. وقبل أن نطوى الصفحة الأخيرة من صفحات قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، لايمكننا أن نغض الطرف عن أحد أسلحتها الفعالة، والتى لم يكن دورها يقل أهمية وبعد أثر عن الجوانب الأخرى التى تناولناها ، بل ربما فاق بعضها أحيانا، نعنى بذلك التبشير بالمسيحية بين هذه الشعوب المجاورة ، خاصة وأن القسطنطينية كانت تعتبر نفسها درع الأرثوذكسية ، وقلعة المسيحية الشرقية ، وآمن الأباطرة أن واجبهم ، باعتبارهم نواب المسيح على الأرض، يحتم عليهم نشر العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية المحيطة بالإمبراطورية. لهذا لقيت كنيسة القسطنطينية التأييد الكامل ، بل والحث من جانب الأباطرة فى هذا السبيل؛ فقد كان امتداد النفوذ الروحى لكنيسة القسطنطينية فى منطقة ما، يستتبع بالضرورة امتداد سلطان الدولة السياسى إلى هذه المنطقة .

٨٦- راجع تفصيلات ذلك فى .Haskins , The Normans in European History, New York 1966

٨٧- إلى جانب كتاب De Adminstrando Imperio راجع أيضا :

Obolensky , The Byzantine Commonwelth, pp. 69-236 .

لقد سارت عملية التبشير جنبا إلى جانب الغزو ، فالكاهن المسيحى كان يمهد الطريق تماماً لرجل السياسة ، حيث يسبقه إلى أراضى «البرابرة» ليعرض على الناس هناك ديانته، ويسعى بصفة خاصة إلى جذب النساء أولا ، حيث كان يستهويهن غموض العقيدة الجديدة ، ويصبح من السهل بعد ذلك التأثير على الرجال من ذوى العقول البسيطة[٨٨] ، ولقد ضربنا على ذلك مثالا بمبعوثى فلاديمير الروسى وما قالوه عن القسطنطينية وكنائسها بين يدى زعيمهم. وقد شابههم فى ذلك القوط والقفجاق ، والكروات والصرب والمورافيون والبلغار ، وغيرهم كثير. ولم يأخذ هؤلاء عن البيزنطيين دينهم فحسب، بل عالما كاملا من الأفكار والمشاعر والعادات ومظاهر الحضارة بصفة عامة[٨٩].

لقد كانت السياسة التبشيرية التى مارستها الإمبراطورية البيزنطية بصورة لاتعرف الكلل ، تدور فى إطار «العالمية» Oikoumene التى يرتكز عليها الفكر الرومانى ، فالبيزنطيون يعتقدون أن التنظيم السياسى للعالم، إن هو إلا جزء من الغاية العالمية لله، ويرتبط أساسا بفكرة «الخلاص» الإنسانى، ومن ثم فإن «عالمية» الإمبراطورية الرومانية ، مهدت الطريق فى ظل العناية الإلهية أمام انتصار العقيدة المسيحية على الوثنية. وعليه غدت مهمة الرومان ، حمل لواء الخدمة من أجل المسيح ، والتبشير بالإنجيل بين كل شعوب الأرض[٩٠]، فلاغرابة إذن أن يصبح مفهوم «السلام الرومانى» Pax Romana يعادل «السلام المسيحى» Pax Christiana وأن تتواكب اهتمامات الإمبراطورية مع تعزيز الإيمان المسيحى [٩١]. وبناء على ذلك كان للإمبراطور البيزنطى السيادة الكاملة على كل الشعوب المسيحية بوصفه – كما قدمنا– نائب المسيح على الأرض. لقد ظل هذا المفهوم حيا فى الإمبراطورية حتى أيامها الأخيرة: ففى القرن الرابع عشر أبدى أسقف القسطنطينية شجبه الكامل لما فعله دوق موسكو من الإقدام على حذف اسم الإمبراطور من سجلات الكنيسة الروسية، إذ كتب الأسقف إليه يذكره بالالتزامات الواجبة عليه تجاه الإمبراطور العالمى، ويوضح له بما لايدع مجالا للشك ،

٨٨- Diehl , Byzantium, p. 59 .

٨٩- Id . وأيضا Bury , history of the Lat . Rom. Emp . II , p. 292

٩٠- Obolensky , Byzantine diplomacy , p. 55 .

٩١- Id .

امتداد سلطان الإمبراطور البيزنطى على روسيا ، قائلا «أى بنى .. لقد تم تتويج ملك الملوك Basileus و «الحاكم المطلق » Autokrator للرومان ، ليرعى المسيحيين جميعا [٩٢]. ولذلك فإن هذا التمرد من جانب الدوق الروسى ضد القاعدة الأساسية «للعالمية» Oikoumene كانت مجرد استثناء لا أكثر ، إذ سرعان ما كتب إبنه وخليفته، باسل ، إلى الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر، آخر أباطرة بيزنطة قائلا : «لقد تسلمت سلطانك الإمبراطورى العظيم.. لإقرار المسيحية الأرثوذكسية فى مملكتك ، ولتقدم العون كل العون لنا دنيا ودينا »[٩٣].

ويكفى أن نرتد على آثارنا قصصا ، عبر ألف ومائة من السنين ، هى الفاصلة بين قسطنطين الأول وسميه الحادى عشر هذا ، لندرك أن هذا المفهوم عن سلطان الإمبراطور «نائب المسيح» Vicarius Christi و «عالمية» الإمبراطورية التى ظلت قائمة حتى القرن الخامس عشر، كانت واضحة منذ البداية فى القرن الرابع ، تمثلها هذه العبارات التى وردت فى رسائل قسطنطين الأول، رغم الشكوك حول مسيحيته ، والتى جاء فيها : «لقد كنت عدة الرب التى اختارها وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته ، وعليه .. فإنه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد، والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة ، تستتر الشمس فيها بالأفق ، وبعون إلهى ، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت ، آملا ، وأداتيتى للرب تنير خطوى، أن يرعى البشر ناموس الإله المقدس ، ويزدهر بهدى يديه المقتدرتين معتقدنا الطوباى[٩٤] » ويضيف « ... بفضل جهدى، ولأنى لله نعم الخادم، آمن البرابرة بعبادة الرب، وما ذلك إلا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحامينى فى كل خطو ودرب ، ولأنهم من خشيتنا أدخلوا إلى المعرفة الحقة للإله الذى هم الآن بعبادته قائمون »[٩٥].

وقد ساعد على نجاح السياسة البيزنطية فى مهمتها التبشيرية ، وبالتالى امتداد نفوذ الإمبراطورية إلى مناطق جديدة ، أن منطقة البلقان كانت تشهد بصفة مستمرة ، موجات إثر موجات من الشعوب الوثنية التى تتابعت على المنطقة ابتداء بالعناصر الجرمانية منذ القرن

٩٢- Ibid. 54 .

٩٣- Id .

٩٤- EUSEB . Vita Constantini , III 57 .

٩٥- Ibid . IV 9-13 .

الرابع الميلادى ، وانتهاء بالقبائل التركية ، والصقلبية فى القرون من الثامن إلى العاشر . وكان فتح المسلمين للولايات البيزنطية فى الشرق ، سوريا ومصر وأفريقية ، عاملا هاما جداً فى تخلص الإمبراطورية - كارهة- من المناطق التى كانت بؤرة الخلافات العقيدية مع القسطنطينية . ثم جاء عدم تمكن المسلمين من إسقاط القسطنطينية خلال الحصار الذى فرضوه عليها سنة ٧١٧ للميلاد ، نجاحا كبيرا للسياسة التبشيرية البيزنطية فى منطقة البلقان، التى كانت تموج آنذاك بالشعوب الوثنية، التى تحولت تباعا إلى المسيحية الأرثوذكسية على يد المبشرين البيزنطيين . ولاشك أن الخسارة التى منى بها المسلمون أمام القسطنطينية الآن، تفوق بكثير هزيمتهم بعد ذلك بسنوات قلائل فى أقصى الغرب على يد شارل مارتل Charles Martel فى موقعة بلاط الشهداء (تور - بواتييه) ، إذ لو تمكن المسلمون من فتح القسطنطينية آنذاك ، لوجدوا تربة خصبة للدعوة للإسلام فى منطقة البلقان ، على العكس من فرنسا فى الغرب ومن ورائها إيطاليا . كما أن الإمبراطورية سرعان ما اجتازت أزمة الحروب الأيقونية التى شغلت معظم عهود أباطرة الأسرتين الأيزورية والعمورية ، لتنطلق بعد ذلك بكامل طاقاتها للتبشير بالمسيحية فى منطقة البلقان ، التى أمست من بعد عن طريق العقيدة ، داخلة ضمن «عالمية» الإمبراطورية ، أو الدوران فى فلك نفوذها .

وتجلت خطورة الدبلوماسية البيزنطية فى هذه الناحية ، باستخدامها تلك المسألة العقيدية سلاحا رفعته القسطنطينية فى وجه كنيسة روما ، التى حاولت أن تجد لها مكانا ولعقيدتها الكاثوليكية موطئ قدم فى تلك المنطقة . وبلغ الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، يساندها الأباطرة ، حدا بعيدا أضاف إلى الرصيد العدائى بينهما بعدا جديدا ، حتى لقد وصل الأمر عند كل منهما إلى حد تقديم تنازلات على حساب العقيدة أحيانا ، والقوانين الكنسية أحيانا أخرى، لاسترضاء هذه الشعوب . لكن الجولة الأخيرة فى هذا الاصطراع كانت لصالح القسطنطينية [٩٦]. وليس أدل على ذلك من أنه خلال السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية ، وفى القرن الرابع عشر ، عندما خارت قواها ، وغلبها على أمرها أعداؤها ، خاصة السلطنة العثمانية الناشئة، راح بعض من أباطرتها مثل يوحنا الخامس باليولوجوس ومن بعده إبنه مانويل ، يتوجهون تلقاء الغرب وروما يطلبون العون

٩٦- يمكن الوقوف على تفصيلات هذه الأمور فى :

Ware , The Orthodox Church , Penguin book , 1967 .

العسكرى . وكان الثمن فادحا ، يتمثل فى تخليهم عن الأرثوذكسية ، العقيدة التقليدية للإمبراطورية ، وجوهر «العالمية» المسيحية لبيزنطة، وتحولهم إلى الكاثوليكية . رغم أن الغرب لم يقدم شيئا مطلقا سوى التمنيات الطيبة !! فى هذه الظروف الحالكة وقفت الكنائس البلقانية التى تدين بالأرثوذكسية ، لترفض اتجاه الأباطرة هذا وتعلن تمسكها بعقيدتها التقليدية ، محافظة على التقليد الإمبراطورى الجوهرى. وعندما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح العثمانى ، بدا لأعين الممالك الصلقبية ، أن المسئوليات الإمبراطورية الرومانية والمسيحية قد ألقيت إليها ، وتزوجت صوفيا Sophia إحدى أميرات أسرة باليولوجوس من إيفان Ivan الموسكوفى !!

والآن .. يبدو أن علامة الاستفهام الكبيرة التى كانت تطرح نفسها فى أول الحديث، قد وجدت لها الآن إجابة مقنعة : فالدبلوماسية البيزنطية كانت تشكل بلاريب ، القوة الرئيسية إلى جانب الجيش فى الحفاظ على سلامة الإمبراطورية طيلة هذه القرون . وكان تنوع أساليبها بين الزواج السياسى والإغداق بالمنح والهدايا والألقاب والثياب والأموال، واستقبال الوفود واستضافة أبناء الحكام الأجانب فى البلاط ، واستخدام الوقيعة بين القبائل ، وإقامة الدول الحاجزة على الحدود الطويلة للإمبراطورية ، والتبشير بالمسيحية بين الشعوب الوثنية ، دليلا عمليا على قدرة صانعى السياسة البيزنطية على التمكين للإمبراطورية عبر ألف ومائة من السنين . ومع الحفاظ على قواعد الدبلوماسية فى جوهرها ، إلا أن المرونة كانت أهم سماتها. وإذا كان الجيش هو الذراع القوية للإمبراطورية البيزنطية، فلاشك أن الدبلوماسية كانت ذراعها الطويلة !

الفصل الرابع

الصراع الدولى حول شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس الميلادى

الصراع الدولى حول شبه الجزيرة العربية
فى القرن السادس الميلادى

على مشارف النهاية ، للربع الأول من القرن السادس الميلادى، حملت صفحة الماء ، عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، أسطولا ضخما من السفن الحربية ، كان يقل جيشا من الأحباش، وجهته بلاد العرب السعيدة.. اليمن Arabia Felix .. ما لبث أن ألقى عند ميناء «مخا» Mokha مراسيه ، ليندفع جنوده إلى اليابسة يصطدمون بقوات الملك الحميرى ، «ذى نواس» الذى سرعان ما حلت به وبجيشه الهزيمة ، عندها آثر أن يبتلعه اليم على أن يساق أسيرا فى موكب نصر الأحباش ، إذ ساق جواده وألقى بنفسه فى البحر ، ليخط بذلك الصفحة الأخيرة فى ملك الحميريين ، وليقول فى رثائه «علقمة بن ذى جدن» :

أو ما سمعت بقَيْل حمير يوسف   أكل الثعالف[1] لحمه لم يقبر

ورأى بأن الموت خير عنده   من أن يدين لأسود أو أحمر

ولتمسى اليمن بذلك تابعة لمملكة أكسوم Auxuma ، وإن كان ذلك إلى حين ، حين يستقل بها – ذاتيا– أبرهه Abramos «الأشرم» ويقيم على أرضها مملكة حبشية ، حاملا لقب «ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها وتهامة» .

وتتفق المصادر التاريخية العربية[2] وتظاهرها كتب التفاسير[3] على أن هذا الغزو الحبشى لليمن ، إنما كان نتيجة طبيعية للاضطهاد الدينى الذى أنزله «ذو نواس» ، وكان قد تهود ،

١– الثعالف : الحيتان ، راجع محمد الأكوع الحوالى، اليمن الخضراء ص٤٠٣ .

٢– ابن هشام : السيرة ، جـ١ ص٢٨ –٣٠ ؛ التيجان فى ملوك حمير، ص٣١٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٠٥–١٠٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ص٦٣٧ ؛ اليعقوبى، تاريخ جـ١ ص١٩٩ ؛ المسعودى، مروج الذهب جـ٢ ص٧٧–٧٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ جـ١ ص٢٥٣ ؛ البلخى ، البدء والتاريخ جـ٣ ص١٨٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان جـ٧ ص٢٦٢ .

٣– جاء فى القرآن الكريم قول الله تعالى: «قُتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها =

بالمسيحيين فى مملكته ، خاصة منطقة نجران ، محاولا قهرهم على هجران دينهم والتحول عنه إلى اليهودية . وتقرن هذه المصادر كلها تلك الأحداث بما ورد فى القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود. ولاتبتعد بعض المصادر البيزنطية والسريانية المعاصرة[٤] كثيرا عما أورده المؤرخون والمفسرون المسلمون .

ورغم ما يقدمه المفسرون من روايات كثيرة وآراء متعددة حول قصة أصحاب الأخدود ، إلا أنهم يتفقون على أن «أخدود» ذى نواس كان واحداً بين هذه الأخاديد ، وأنه المعنى بقصص القرآن الكريم عن تلك الواقعة ، التى أثارت نوعا من الخلاف فى الرأى بين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، حول «يهودية» ذى نواس أو «وثنيته» . ويرى نفر من هؤلاء وأولئك فيه وثنيا ، مستندين فى ذلك إلى النص القرآنى فى قوله تعالى : «.. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شئ شهيد»[٥] . وعليه يبدى ياقوت الحموى دهشته من نسب حادث الأخدود إلى ذى نواس «اليهودى» ، لأن ذلك يقضى – فى رأيه- أن يكون القاتل والمقتول من أهل التوحد ، والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود [٦]. وعلى نهجه ينسج محدثون قولهم إن ذا نواس دعا أهل نجران المسيحيين للرجوع إلى الوثنية لا إلى اليهودية ، لأن المسيحية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن ، كانتا- حسب تعبيره- ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل إحداهما على الأخرى[٧] .

= قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شئ شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق». (البروج ٤-١٠) . وانظر : الطبرى : جامع البيان جـ٣ ص١٣٢-١٣٥ ؛ الفخر الرازى، التفسير الكبير جـ٣١ ص١١٨-١٢٢ ؛ القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ٢٠ ص ٢٨٦-٢٩٣ ؛ النسفى ، مدارك التنزيل جـ٣ ص٦٧٣-٦٧٤ ؛ ابن كثير، جـ٤ ص٣٦٥-٣٦٦ ؛ الألوسى، روح المعانى جـ٣٠ ص٨٨-٩٠ .

٤- ZACH. MET. Chron . pp. 190-200 ; PROCOP. Bell . Pers . I, 189 The Book of Himyarites , p. cv .

٥- سورة البروج : الآيات ٨-١٠ .

٦- معجم البلدان جـ٧ ص٢٦٢ .

٧- عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص٧٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص١٢٧ .

أو لأن ذا نواس – عند ثان – خشى عاقبة الاتصالات التى كانت قائمة بين المسيحيين فى مملكته ومملكة أكسوم على الجانب الآخر للبحر الأحمر [٨].

غير أن هذا النص القرآنى الذى اتخذه هؤلاء دليلا للحكم بوثنية الملك الحميرى، لو أخذ فى ضوء النصوص القرآنية الأخرى، وليس منفصلا عنها، عد دليلا أوضح بيانا على «يهودية» ذى نواس ، نعنى بذلك قول الله سبحانه وتعالى : «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا»[٩] والإتيان باليهود قبل المشركين فى الآية ، له دلالته ومغزاه، وقوله تعالى أيضا، «وقالت اليهود ليست النصارى على شئ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ ، وهم يتلون الكتاب»[١٠]، ثم ما جاء على لسان اليهود، «... قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل»[١١]، ولما كان المسيحيون غير اليهود خارجين عن نطاق اليهودية عقيدة ، فهم يندرجون ضمن الأميين أو الأمميين حسب تعبير التوراة ، وذلك فى عرف اليهود. وقد لمس القرطبى ذلك فى «الجامع» بتأكيد القول على يهودية ذى نواس ، عند تفسيره لسورة البروج ، فى قوله : «فخدَّ لهم أخدودا وعرضهم على الكفر (يعنى الكفر بديانتهم واعتناق اليهودية) فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار» [١٢]. وكان هذا بعينه الاعتراف الذى ورد فى الرسالة ، التى تذكرها المصادر التاريخية منسوبة إلى ذى نواس ، والتى بعث بها إلى المنذر الثالث ملك الحيرة ، حيث قال : «كان أول عمل أقدمتُ عليه بعد أن غدوت ملكا على حمير ، هو ذبح المسيحيين جميعهم ، إلا من رأى أن يتحول إلى اليهودية مثلنا ... لقد طلبت منهم أن يكفروا بالمسيح والصليب ويصبحوا يهوداً ، لكنهم أصروا على عقيدتهم» .

ويؤيد ذلك تماما ما جاء فى مخطوطة «استشهاد الحارث» أحد كبار رجال الدين المسيحيين الذين ماتوا فى هذه الأحداث ، وهى تعود إلى القرن السادس الميلادى، أى أنها معاصرة لتلك الوقائع ، وإن كان لايُعرف مؤلفها على وجه التحديد ، وقد جاء فيها ما نصه : «... وكان

٨- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٣ ص١٧٩ .

٩- سورة المائدة : آية ٨٢ .

١٠- سورة البقرة : آية ١١٣ .

١١- سورة آل عمران : آية ٧٥ .

١٢- القرطبى : الجامع جـ٢٠ ص٢٨٦ - ٢٩٣ .

المنادى ينادى بلغته ويقول اكفروا بالذى يقال له المسيح الناصرى وتهودوا وكونوا على دين الملك (ذى نواس) لكيما تحيون (هكذا) ويضيف فى موضع آخر قوله «... وكان الملك الملعون يقول لهم لاتصلون وتبتغون الذى يقال له المسيح الذى ضربه آباؤنا بالعصى وصلبوه وقتلوه، لكن أطيعونى وتهودوا فتعيشون مع بنيكم ، وإن لم تطيعونى فستموتون موتا »[١٣].

ولم يكن ذو نواس[١٤] أول من تهود من ملوك حمير ، وإن كان آخرهم ؛ ذلك أن المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، كانت قد أضحت أحد المراكز الهامة لليهودية خلال القرون الأولى للميلاد[١٥] ، إذ وجد اليهود فيها ملجأ لهم وملاذا ، بعيدا عن أيدى الرومان ، عقب الأحداث التى وقعت على عهد كل من الإمبراطورين فسباسيان Vispasianus إبان القرن الأول للميلاد ، وهادريان Hadrianus فى القرن التالى ، فى أعقاب ثورتهم التى أشعلوها ضد الحكومة الرومانية ، وامتدت من برقة إلى فلسطين . ومن ثم وجد اليهود فى جنوب الجزيرة العربية وغربها مهربا بعد تدمير الهيكل، وراح نفوذهم يزداد تدريجيا خاصة خلال الربع الأخير من القرن الرابع ومطلع القرن الخامس ، عندما تحول بعض من ملوك حمير آنذاك إلى اليهودية [١٦].

ويحاول بعض المؤرخين[١٧] أن يضفى على «يهودية» ذى نواس طابعا سياسيا ، بمعنى أنه فى مواجهة القوى الدولية الكبرى آنئذ ، الإمبراطورية البيزنطية ومملكة أكسوم بعقيدتهما

١٣- ZACH. Chron. p. 193 وقارن ، كوبشيانوف ، الشمال الشرقى الأفريقى فى العصور الوسطى المبكرة وعلاقته بالجزيرة العربية ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص٤٧-٤٨ . وقد أورد كوبشيانوف نص هذه المخطوطة ملحقا فى كتابه سالف الذكر ، ص٣٤٠-٤٢٦ .

١٤- تذكره النصوص البيزنطية باسم «دميانوس» Dimianus و «ديمنوس» Dimnus ، بينما يرد ذكره عند الأحباش باسم «فنحاص» Phinhas وفى المصادر السريانية باسم «مسروق» Masruk وإن كان هو نفسه قد تسمى بيوسف عند تهوده .

١٥- Shahid , Byzantium in South Arabia, p. 31 .

١٦- فيليب حتى : تاريخ العرب ص٩٥-٩٦ ؛ موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ص١٩٣ ، وراجع أيضا : Sharf, Byzantine Jewry , p. 31 .

١٧- Trimingham, Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, p. 289 .

وراجع أيضا Sellassie , Ancient and Medieval Ethiopian history , pp. 126-127 .

المسيحية ، وامبراطورية الساسانيين الفرس بوثنيتها ، أقدم ملك حمير على التحول إلى اليهودية ، ليقف بها قوة ثالثة بين هؤلاء وأولئك . غير أن هذا المنحى يحمل كثيرا من المبالغة، وإذا كان قد صدق من بعد على إمبراطورية الخزر Khazar فى القرن الثامن الميلادى، عندما تحول ملكها وشعبه إلى اليهودية ، ليتخلص من الصراع السياسى العنيف الدائر حول مملكته بين الخلافة الإسلامية فى بغداد ، والإمبراطورية المسيحية فى القسطنطينية [١٨]، فإنه من الصعب قبول ذلك فى حالة ذى نواس؛ فالخزر كانوا يومئذ قوة سياسية كبرى يحسب فى لعبة الأمم حسابها ، أما اليهود فى اليمن فلم تكن أعدادهم ولاقوتهم ولامكاناتهم تسمح لهم بالقيام بمثل هذا الدور، أو إنشاء «دولة يهودية»، على حد تعبير بعض المؤرخين المحدثين[١٩]، إذ كان إلى جوارهم المسيحيون ، خاصة فى ظفار ، عاصمة الحميريين ، ونجران ، المركز التجارى الهام فى طريق القوافل إلى الشمال ، بالإضافة طبعا إلى الأغلبية الوثنية التى كانت لها السيادة طيلة القرن الأخير على الأقل ، وذو نواس نفسه كان وثنيا قبل أن يتحول إلى دين يهود ، ومن غير المعقول ، أن يتمكن خلال سنى حكمه القصيرة، حوالى عشر سنوات (٥١٥-٥٢٥) من إقامة «دولة يهودية» من حطام مملكة حمير التى كانت تعانى أوجاع الفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادى والصراع العقائدى خلال أيامها الأخيرة ، وإن كان

١٨- هناك أحداث شبيهة بذلك إلى حد كبير وقعت فى القرن الثامن الميلادى، عندما تحولت دولة الخزر ، الواقعة بين بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود شرقا وغربا ، والفولجا والقوقاز شمالا وجنوبا ، إلى اليهودية ، لتتصدى لمحاولات القوتين السياسيتين الكبيرتين آنذاك ، الدولة الإسلامية ممثلة فى الخلافة العباسية ، والإمبراطورية البيزنطية المسيحية، ويقول «كوستلر» فى كتابه The Khazar Empire and its heritage : «كانت إمبراطورية الخزر تمثل قوة ثالثة أثبتت أنها ند لكل منهما، سواء باعتبارها خصما أو حليفا . ولكنها كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الإسلام ، لأن كلا من الخيارين كان سيؤدى بها تلقائيا إلى الانضواء تحت سلطة الإمبراطور الرومانى أو خليفة بغداد»، راجع ص٧٢ من الترجمة العربية لكتاب «كوستلر» التى قام بها حمدى متولى صالح، دمشق ١٩٨٥ . ويقول «بيورى» Bury فى كتابه Eastern Roman Empire, p. 406 : «ليس ثمة شك فى أن الحاكم الخزرى كان متأثرا بدوافع سياسية حينما اعتنق اليهودية ، ذلك أن اعتناق الاسلام كان سيجعل منه تابعا روحيا للخلفاء الذين حاولوا أن ينشروا عقيدتهم بين الخزر ، كما أن اعتناق المسيحية كان يكتنفه خطر الخضوع للكنيسة الأرثوذكسية» .

١٩- Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 289 .

وأيضا Sharf , Byzantine Jewry, p. 32 .

اليهود بالطبع قد وجدوا فى «تهود» ذى نواس فرصة يقفزون عبرها إلى دست السلطة ، منتهزين فرصة هذه الحال المتردية التى تعيشها حمير فى مرضها الأخير .

ولاشك أن ذا نواس نفسه كان يدرك أنه بحاجة إلى التأييد الخارجى لسياسته ، خاصة بعد أن راح يمارس سياسة الاضطهاد ضد المسيحيين فى مملكته ، يدلنا على ذلك رسالته التى أشرنا إليها من قبل، والتى بعث بها إلى المنذر الثالث ، يقص فيها على مسامعه أنباء ما حل بالمسيحيين على يديه، ويطلب إليه فى الوقت نفسه أن يحذو حذوه، وأن يترفق فى معاملة يهود الحيرة ، ثم يعلن فى النهاية استعداده لتلبية كل ما يطلب إليه لصالح المنذر . وتضيف مخطوطة «استشهاد الحارث» أن ذا نواس وعد ملك الحيرة بأن يبعث إليه بثلاثة آلاف دينار لقاء تأييده فى خطوته هذه التى أقدم عليها ، كما كتب أيضا إلى ملك فارس يخبره بما جرى «ويسأله أن يفعل هو بدوره مثل ذلك فى المسيحيين عنده»[٢٠].

ورغم أن الرسالة تحمل فى كلماتها مظاهر الاعتداد بالنفس ، والتباهى بما أوقعه الملك الحميرى برعيته المسيحية ، ورغم ما يكون قد داخلها من عبارات تحمل طابع المبالغة ، مما قد يوحى بأنها مضافة إلى نصها الأصلى، ولم تصدر عن ذى نواس ، إلا أنها فى الوقت ذاته تنبئ فى سطورها الأخيرة عن رغبته فى أن يقف المنذر إلى جانبه، مخافة ما لابد أن يترتب على هذه الأحداث ، خاصة وأنه يذكر فى رسالته هذه، أن عددا من الأحباش المقيمين على أرضه قد نالتهم يد العذاب[٢١]. ويؤكد ذلك ما أورده عن هذا الأمر أيضا، المؤرخ البيزنطى المعاصر بروكوبيوس Procopius القيسارى[٢٢]. فإذا أضفنا إلى هذا كله ما تذكره بعض

٢٠- ZACH . Chron. p. 197 وأيضا مخطوطة «استشهاد الحادث» فى كتاب كويشيانوف، ص٣٩٧ .

٢١- راجع نص الرسالة فى ZACH . Chron. pp. 193-197 والمعروف أن هذه الرسالة التى يوردها المؤرخ الكنسى زكريا المتلينى ، نقلا عما كتبه الأسقف سمعان ، راعى المسيحيين فى فارس إلى سميه كاهن كنيسة كابولا Cabbula وقد تضمنت مواقف المسيحيين فى ظفار ونجران من يهودية ذى نواس ومحاولته صرف هؤلاء عن عقيدتهم ، وذكرت الكثير عن «البطولات» التى قدمها النساء تضامنا مع أزواجهن، مما يضع أمام الباحث كثيرا من علامات الاستفهام فى صحة نسب هذا الجزء من الرسالة إلى ذى نواس ، الذى لايعقل أن يذكر بـ «الاعجاب» موقف المسيحيين من فعاله .

٢٢- Bell . Pers. I, p. 189 .

المصادر البيزنطية والسريانية[٢٣] عن تعرض جماعات من التجار الرومان العابرين للقتل ضمن جملة المسيحيين فى ظفار ونجران ، أدركنا خطورة موقف ذى نواس ، والمغزى الحقيقى من وراء رسالته إلى ملك الحيرة .

وإذا كان المنذر الثالث قد أبدى شيئا من التعاطف إزاء رغبات الملك الحميرى، والذى ربما يعزى إلى ما يذكره ابن العبرى من انتماء ذى نواس فى نسبه لأمه ، التى كانت على اليهودية، إلى أهل الحيرة [٢٤]، إلا أنه كان تعاطفا سلبيا وقف فقط عند حد الأمنيات الطيبة، دون التعاون الفعلى الذى كان يؤمله ذو نواس من خلال هذه المراسلات ، خاصة وهو يعلم علم اليقين ، مدى العلاقة التى تربط مملكة الحيرة بالإمبراطورية الفارسية. ولعله كان يقصد بذلك أن يضمن وقوف إحدى القوى الكبرى فى عصره إلى جواره، ولما كان الفرس بطبيعة الحال غير متحمسين ، عقيديا وسياسيا، لنصرة المسيحية ، فقد أمل أن يتحقق له هذا العون فى إطار استغلال ظروف الصراع السياسى الدائر يومذاك بين فارس وبيزنطة .

ومع أننا لانميل إلى الأخذ بما يذهب إليه بعض الباحثين ، من أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين فى دولته ، بما فيهم الأحباش والتجار الرومان، كان متفقا عليه من قبل مع اللخميين فى الحيرة ومن ورائهم الفرس [٢٥]، معتمدين فى ذلك على الرسالة السابق ذكرها ، لأنه لو صح هذا الافتراض ، لامتد هذا الاضطهاد ليشمل مسيحيى الحيرة أيضا ، ولوجدت فعال ذى نواس ترحيبا من المنذر الثالث، لكن شيئا من هذا لم يحدث، نقول مع كل ذلك، إلا أن الذى لاشك فيه ، أن ذا نواس كان على علم كامل بمسألة الصراع الدولى الدائر آنذاك بين القوتين الكبيرتين ، والتى كانت شبه الجزيرة العربية إحدى محطاته ، بما تمثله من أهمية اقتصادية ، وبالتالى سياسية تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة وطوال العصور الوسطى .

٢٣- MALALAS, Chron. p. 432 .

وأيضا MICH . SYR. Chron . p. 183 .

٢٤- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٨٧ ، وراجع أيضا كوبشيانوف ، الشمال الشرقى الأفريقى، ص٤٦ .

٢٥- منذر عبد الكريم ، العرب قبل الإسلام ص٣٦٢-٣٦٣ .

وهذه النقطة الأخيرة تضيف بعدا جديدا لمسألة الاضطهاد الذى مارسه ذو نواس ضد المسيحيين فى مملكته ، مشركا معهم فى وطأته التجار الرومان والأحباش ؛ فمما لاريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ هؤلاء التجار ، العابرين والمقيمين ، قد أثار حفيظته ، إذ رأى ما يجنيه أولئك من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة الرئيسى عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر إلى شمالها وحتى البحر المتوسط إنتهاءً ببلاد الشام أو مصر فى طريقه إلى الأراضى البيزنطية، ولابد أن يكون قد رأى أيضا فى المسيحيين فى ظفار ونجران أعوانا لهؤلاء الرومان والأحباش فى هذا السبيل ، ولذا راح يمارس سياسته والأمل يحدوه فى أن يتحول هذا الثراء لبنى عقيدته من اليهود ، إذا ما حل تجارهم محل أولئك الأجانب «المسيحيين» ولعبوا دورهم فى حركة التجارة النشطة بين مناطق المواد الخام والتوابل والبخور والحرير فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، وأسواق الاستهلاك فى الإمبراطورية البيزنطية وما وراءها. ومن ثم فإن سياسة الملك الحميرى تجاه المسيحيين ، إذا كانت لاتخلو من نغمة التعصب الدينى ، إلا أنها فى الوقت نفسه تنطوى على أهداف اقتصادية بعيدة . وإن كان أحد الباحثين أيضا يفسر هذه السياسة بأنها مجرد إجراء انتقامى للمعاملة السيئة التى يلقاها اليهود من الإدارة الرومانية [٢٦].

وكان طبيعيا وقد اتجه ذو نواس ببصره إلى خارج دولته، ليضمن إلى جواره ملك الحيرة، ومن ورائه قوة الفرس إذا حزب الأمر، أن يولى المسيحيون هم الآخرون وجوههم شطر قوة دولية أخرى يدينون بدينها وهى الإمبراطورية البيزنطية ، وهنا تختلف الروايات فى المصادر الإسلامية مرة أخرى حول الوجهة التى اتخذ «دوس ذو ثعلبان» - الذى نجا من من الاضطهاد - إليها سبيلا ؛ فبعضها يقرب به المسافة وصولا إلى كالب Kaleb نجاشى الحبشة [٢٧]، وبعض ثان يوجهه إلى جوستين Iustinus إمبراطور الرومان فى القسطنطينية [٢٨]، وثالث

٢٦- Sharf, Byzantine Jewry, p. 32 وراجع أيضا ، نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم ص٤٠١ .

٢٧- ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ص٣١٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ص٦٣٧ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ١ ص١٩٩ . ومن المعروف أن كالب هذا هو الاسم الذى ورد فى الكتابات الحبشية ، أما المصادر البيزنطية فتسميه إل أصبحة Elisbahaz .

٢٨- ابن هشام : السيرة جـ١ ص٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١ ص٢٥٣ .

لاحظ أن ابن هشام يذكر الروايتين فى كتابيه ، التيجان والسيرة .

يورد الروايتين معا [٢٩]، ورابع يحاول التوفيق؛ فالأزرقى يذكر أن دوس ذا ثعلبان هذا اتجه إلى «القيصر» مباشرة، وقص عليه القصص، فقال له: «بعدت بلادك عنا.. لكن سأكتب إلى ملك الحبشة فإنه على ديننا فينصرك»[٣٠] وتؤيد مخطوطة «استشهاد الحارث» ما يذهب إليه الأزرقى، حيث تقول إن وفد نجران قدم إلى ملك الروم (وإن كانت تعتبره جوستنيان وليس خاله جوستين)، وحكى له ما كان، فاشتد ذلك على الملك وكتب للوقت إلى «تيموثى» بطريرك الاسكندرية كتابا يوعز إليه أن يكتب إلى ملك الحبشة كتابا يحثه فيه على الخروج بجيوشه إلى صاحب سبأ (يعنى ملك حمير) ليهلكه ويهلك جيشه، ثم كتب أيضا إلى ملك الحبشة» بالمعنى نفسه، بل زاد على ذلك تهديده بغزو الحبشة نفسها إن لم يفعل ما يأمره به !!بينما تأخذ رواية البلخى الجانب الآخر، إذ يقول: «وصل صريخ أهل نجران إلى النجاشى ملك الحبشة، فقال: «عندى رجال وليس عندى سفن، فكتب إلى قيصر الروم وبعث إليه بالأوراق المحرقة من الانجيل يغريه بذلك»[٣١] وقد لاتعدو هذه الرواية الحقيقة، فالسفن التى تمتلكها مملكة أكسوم، كانت سفنا تجارية فى معظمها، ولم تكن أعدادها تسمح بنقل جيش كبير إلى الشاطئ الآسيوى المقابل. ومن ثم تم نقل القوات الحبشية، على سفن الأسطول البيزنطى التى كانت راسية فى موانى القلزم (السويس) وعيتاب (تيران) والتى تجمعت كلها فى ميناء عدول Adulis التابع للأحباش [٣٢]. والذى يلفت الانتباه هنا أن كاتب مخطوطة «استشهاد الحارث» يخبرنا بعد ورقة واحدة من روايته السابقة عن وفد نجران إلى الامبراطور البيزنطى، أن رجلا من أهل نجران يمت بصلة نسب إلى الحارث، قد تمكن من الوصول إلى ملك الحبشة ليستنجد به، والمخطوطة هنا تتفق مع ما يقوله المؤرخ الطبرى. ومن

٢٩- الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٠٦.

٣٠- الأزرقى: أخبار مكة جـ١ ص١٣٥.

٣١- البلخى: البدء والتاريخ جـ٣ ص١٨٤. وراجع أيضا ابن هشام، التيجان، ص٣١٢.

٣٢- Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25، وللمزيد من التفاصيل عن وقائع الحرب وخط سير الحملة داخل أراضى اليمن. راجع كوبشيانوف، الشمال الشرقى الأفريقى ص٧٢-٨٧. وأيضا مخطوط «استشهاد الحارث» حيث يقدم وصفا تفصيليا لذلك، وهو ما اعتمد عليه كوبشيانوف فى كتابه، وكذلك Vasiliev, Justin, p. 367.

ثم يقول كاتبها إنه عندما وصلت رسل الامبراطور إلى ملك الحبشة وجدته قد استعد بالفعل لأمر الغزوة، ثم تورد لنا الموانئ التى وردت منها السفن التى استخدمها الملك فى هذا الهجوم.

ومهما يكن من أمر ، فالذى يصح لدينا أن كلا من الإمبراطور البيزنطى والملك الحبشى ، قد أحاطا خُبراً بما حدث لأبناء دينهما وجلدتيهما، من اضطهاد على يد ملك حمير. ولم يكن أى منهما بأقل من صاحبه حرصا على أن يمد يديه لنصرة من استنصروه ، ليس فقط بدافع الوازع الدينى ، بل لأن كلا منهما له مصالحه الخاصة فى هذه المنطقة ، والتى تتفق مع بعضها فى غالب الأحيان ، ولم تكن أحداث ظفار ونجران إلا الضوء الأخضر الذى أنار لهما الطريق للعمل سويا من أجل تحقيق هذه المصالح؛ فقد كانت الجهود العسكرية الحبشية البيزنطية عندئذ تمثل حجر الزاوية فى العلاقات بين القوتين فى القرن السادس الميلادى ، وخلال هذه السنوات ظلت أكسوم الحليف الوفى لبيزنطة فى المنطقة الأفرو-عربية ، على حد تعبير أحد الباحثين[٣٣]، وظل الحال على هذا النحو إلى أن تم الغزو الفارسى لليمن فى سبعينيات ذلك القرن .

كانت مملكة أكسوم قد بلغت درجة كبيرة من القوة السياسية والازدهار الاقتصادى، خلال القرن الرابع الميلادى، على عهد ملكها عيزان Aezanes وظلت على هذا القدر من القوة حتى القرن السابع الميلادى. وامتدت سيطرتها شمالا حتى بلاد النوبة [٣٤]. بل إن منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية وأجزاء من غربها ، خضعت لمملكة أكسوم خلال فترة قصيرة من القرن الرابع، كما أن الأحباش كانوا قد اشتركوا من قبل فى الحروب الأهلية التى دارت بين سبأ وذى ريدان (حمير) ، وحمل ملوكهم آنذاك الألقاب التى أشرنا فى صدر هذا البحث إلى أن أبرهة حملها من بعد ، «ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها فى تهامة»[٣٥]. هذا بالإضافة إلى نشاط أكسوم التجارى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى عن طريق ميناءى عدول وزيلع ، حيث كانت سفنها تنقل العاج إلى الهند وفارس وحمير وبيزنطة[٣٦]. وإذا كانت

٣٣- Shahid, Byzantium in South Arabia , p. 25 .

٣٤- ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب وأكسوم ص٤٣-٤٤ .

٣٥- جواد على : تاريخ العرب جـ٣ ص٤٤٩-٤٥٦ وقارن ، بافقيه. تاريخ اليمن القديم ص١٣٤-١٣٦، ١٥٦- ، ١٧٧-١٧٨ وحاشية رقم ١٩٥ ص٢٣٩ .

٣٦- MALALAS, Chron. pp. 456-459 وأيضا PROCOP. Bell. Pers., I, XIX.

سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى فى تلك الأوقات ، وإذا كانت سفن الصينيين تسير غربا حتى سيلان ، فإن التجارة فيما بين سيلان والمناطق الواقعة غربها ، كان يتولى أمرها الفرس والأحباش[٣٧] .

هكذا إذن ، كانت أكسوم ، بسيطرتها على ميناءى عدول وزيلع، تتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، الذى كانت الإمبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى ، يمثل واحدا من أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك ، وإن لم يكن أهمها على الإطلاق ، حيث كانت التجارة القادمة من الصين وجنوب شرقى آسيا وشرق أفريقيا تتجمع فى عدن ، «المخزن الرومانى» - كما عُرفت [٣٨]، ومن هناك تنقلها السفن الحبشية أو البيزنطية إلى ميناء القلزم، ومنه إلى النيل عبر قناة تم حفرها لتصل بين النيل وخليج القلزم، وهى التى كانت تعرف بقناة تراجان [٣٩]، ثم إلى البحر المتوسط بعد ذلك عن طريق النيل ؛ أو إلى ميناء أيلة على رأس خليج العقبة، إلى دمشق مارا بالبتراء وبُصرى، ومن دمشق إلى الساحل [٤٠].

أضف إلى هذا الطريق البحرى ، طريقا آخر للقوافل يحاذيه ، وهو الذى يمتد من عدن إلى مأرب ثم فى جوف اليمن إلى معين ونجران ، ومنها إلى الطائف ومكة فيثرب ، ثم إلى واحة تيماء مروا بمدائن صالح (الحجر) ثم البتراء أو مُعان من بعد ، حيث تتجه بعض القوافل إلى غزة ومصر، بينما يستمر الجزء الأعظم منها إلى بصرى فدمشق إلى صور على البحر المتوسط،

٣٧- حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص٩٦ .

٣٨- محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخيَة الإسلامية ص١٣ وأيضا: حورانى : العرب والملاحة ص٩٤ .

٣٩- ربما يعود حفر هذه القناة فى أول أمرها إلى الفرعون المصرى القديم نكاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين . وقد أعاد ملك فارس دارا الأول حفرها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم قام الإمبراطور الرومانى تراجان بتطهيرها وحفر قسما جديدا من طرفها الغربى ليصلها بالنيل عند بابليون ، حتى يحسن الاتصال بالفرع الكانوبى من دلتا النيل ، كى تسهل حركة الملاحة إلى الأسكندرية . وقد أعيد حفر هذه القناة مرة أخرى على عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث عرفت بخليج أمير المؤمنين .

٤٠- حورانى : العرب والملاحة ، ص٨٦ .

أو يمتد شمالا إلى حمص فأنطاكية [٤١]. وفى دمشق وحمص كان هذا الطريق يلتقى بطريق آخر قادم من الشرق ، يبدأ من الخليج الفارسي ويصعد فى الفرات حيث يتجه غربا إلى المدن السورية ماراً بواحة تدمر . وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية ، أهمها الطريق الذى يبدأ من نجران ثم يسير فى وادى الدواسر إلى الجرعا (جره) Gerrha على ساحل الأحساء[٤٢] .

على هذا النحو، ندرك أن البحر الأحمر والخليج الفارسى ، يكملها النيل والفرات ، كانا ممرين طبيعين للملاحة بين حوض البحر المتوسط ودول شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، بالإضافة إلى طريق القوافل الرئيسى الموازى للبحر الأحمر وروافده وتفريعاته . وهذا يعنى أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا يطلون من جانبى جزيرتهم هذه ، على أهم الطرق التجارية الكبرى فى عالم القرن السادس [٤٣].

وقد شكلت اليمن بصفة خاصة أكبر سوق تجارية فى شبه الجزيرة العربية، فكانت تتاجر فى حاصلاتها الإقليمية كاللبان والعطور والطيب والبخور، الذى كانت له أهميته الخاصة فى ذلك العصر[٤٤]، كما كانت تتاجر أيضا فيما يرد إليها من بضائع الخليج والهند والصين مثل اللؤلؤ والمنسوجات والعاج والذهب وريش النعام والحرير ، بالإضافة إلى ما يأتيها من السواحل الشرقية لأفريقيا[٤٥]. وهذا يعنى أنها كانت حلقة الاتصال بين الهند والحبشة وشرق أفريقيا من ناحية ، وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا من ناحية أخرى، حتى خيل لبعض القدماء أن هناك

٤١- موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص٣٥٤ حاشية ١٢ .

٤٢- المرجع نفسه ؛ للوقوف على تفاصيل هذه الطرق التجارية كلها، راجع محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ص١٢-٢٠ .

٤٣- حورانى : العرب والملاحة ص٢٤ .

٤٤- كان البخور على رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة فى ذلك العصر ، كان سعره - على حد تعبير جواد على- يساوى سعر الذهب والبترول فى أيامنا هذه، ولم يكن يشتريه لغلائه إلا رجال الدين لاستعماله فى الطقوس الدينية التى تستنزف القسم الأكبر منه ، وكذا الملوك والأثرياء ، وذلك لإحراقه فى المناسبات الدينية والاجتماعية. وكان حرق هذه المادة يكلف خزانة الدولة ثمنا باهظا لارتفاع أسعارها . راجع جواد على، تاريخ العرب جـ٢ ص٦٦ .

قارة تمتد من أفريقيا إلى الهند ، وأن بلاد العرب بمثابة بيت وسط هذه القارة يقع على الساحل الشمالى من المياه الواقعة جنوب باب المندب [٤٦].

وإذا كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند وطريق الشرق كما يسميه د. «هيكل» [٤٧]، أعنى طريق الخليج الفرات ، فإن مملكة أكسوم والإمبراطورية البيزنطية كان يعنيهما فى المقام الأول أن يدعما سيادتهما ونفوذهما على «طريق الغرب» . ولاشك أن البيزنطيين كانوا بطبيعة الحال، يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق من أيدى أصدقائهم الأحباش المسيحيين ، على أن يتلقوها من أيدى أعدائهم الفرس المجوس [٤٨]. ولهذا لم يكن غريبا أن نجد عددا ليس بالقليل من التجار البيزنطيين يذهبون إلى أكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة ، أو من الإسكندرية ، بل إن بعضهم كان يركب سفنا حبشية تبحر بهم إلى الهند [٤٩].

منطقة إذن لها هذه الأهمية الاقتصادية ، فى عالم لعب فيه النشاط التجارى دورا بارزا فى دولاب العمل الاقتصادى ، وترك بصماته على الحياة السياسية، كان لابد أن يتنافس فيها المتنافسون . من هنا ندرك الأهداف الحقيقية للغزو الحبشى لليمن ، فقد كانت مملكة أكسوم ترى فى هذه المنطقة امتدادا طبيعيا لمملكتها المزدهرة آنذاك ، وما دامت حمير غير قادرة فى أخريات أيامها ، بضعفها وتفككها ، على إدارة هذا الإقليم الحيوى، إذن فلتقم أكسوم بهذا الدور ، حتى وإن كانت الأسباب المعلنة ، الانتقام لضحايا نجران ، يعضد أكسوم ، بل ويدفعها إلى ذلك دفعا ، الإدارة الإمبراطورية فى القسطنطينية ، حيث تخبرنا المصادر أن الإمبراطور جوستين أرسل إلى أسقف الاسكندرية ، يطلب إليه أن يستخدم نفوذه لدى ملك أكسوم ، لسرعة إنجاز هذه الحملة العسكرية ، بما لكنيسة الاسكندرية من حق الرعاية على الكنيسة الحبشية . لقد كانت القسطنطينية ترى فى سيادة حلفائها الأحباش على «بلاد العرب السعيدة» تدعيما لسيادتها هى فى البحر الأحمر وعلى جانبيه ، كجزء أساسى من صراعها

٤٦– أوليرى ، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ، ترجمة كامل وهيب، ص١٣٥ .

٤٧– محمد حسين هيكل : حياة محمد ص٨٩ ، ويطلق على طريق البحر الأحمر (البرى والبحرى) طريق الغرب .

٤٨– هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ١ ترجمة أحمد محمد رضا ص٢٢ .

٤٩– MALALAS , Chron. , p. 433 .

المستمر مع الإمبراطورية الفارسية، اقتصاديا وسياسيا وعقيديا . ومن هنا لم تتوان عن تقديم سفنها أسطولا يحمل الأحباش إلى اليمن .

كان البيزنطيون يعلمون جيدا أن سفن الفرس لاتقف فقط عند سيلان والخليج الفارسى والشواطئ الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية؛ فقد كان للفرس سفنهم فى عدول ، وليس من المستبعد أبدا أن تكون قد زارت حمير ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية إلى اليمن، ويوكلون حراستها لجماعات من العرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة فى قومهم (٥٠)، وكان هذا يثير الريبة فى نفوس البيزنطيين فى نيات الفرس ، إذ لو تم التقارب بين ملوك حمير والساسانيين، لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية إلى بيزنطة عبر الخليج والبحر الأحمر فى قبضة الفرس، ولخسر البيزنطيون بذلك خسارة اقتصادية كبيرة، ولضيق عليهم فى أهم ما يستوردونه من أقصى الشرق، أعنى الحرير ، خاصة وأن الفرس كانوا يسيطرون بالفعل لفترات طويلة ، وإن كانت متقطعة أحيانا، على طريق برى ، لايقل أهمية عن سابقيه ، يبدأ من وسط آسيا ، ويمضى محاذيا الساحل الجنوبى لبحر قزوين ، أو الشمالى فى فترة لاحقة ، وينتهى إما إلى بحر آزوف أو إلى القرم، فى المواقع التى شيدها البيزنطيون، أعنى مدينتى بسفور Bosporus وخرسون Cherson باعتبارهما مخفرين أماميين ، وهو الذى يعرف بطريق الحرير (٥١).

ولم يكن الاهتمام البيزنطى بشبه الجزيرة العربية ، وما يحيط بها ويمر فيها من الطرق التجارية ، شيئا حديث عهد على الإدارة الإمبراطورية ، بل إن ذلك يعود إلى فترة مبكرة منذ بدايات العصر الإمبراطورى الرومانى؛ عندما أقدم أول الأباطرة أوكتافيانوس أوغسطس Oc-tavianus Augustus على تكليف والى مصر آيليوس جاللوس Aelius Gallus بتجريد حملة على اليمن، متخليا بذلك عن سياسة عدم التوسع ، وذلك من أجل تحقيق هدف اقتصادى هام (٥٢). ولتحقيق ذلك حشد هذا الوالى حملة قوامها عشرة آلاف جندى، وبعض

٥٠- جواد على : تاريخ العرب جـ٢ ص٦٣٢ ؛ حورانى : العرب والملاحة ص٩٨ .

٥١- هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ص٢٤ .

٥٢- عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ص٦٣ .

وحدات مساعدة من الحامية المرابطة فى مصر ، وحصل على عون من الأنباط مقدارهم ألف رجل ، بعث بهم الملك عبادة الثالث مع وزيره صالح Syllaeus ليكون دليلا للحملة ، وأمده هيرودس ملك اليهود بخمسمائة يهودى، حملتهم جميعا من ميناء أرسينوى Arsinoe (قرب السويس الحالية) مائة وثلاثون حاملة للجنود ، يدعمها أسطول حربى من ثمانين سفينة ، اتخذت سبيلها فى البحر عجبا إلى ميناء الحوراء (ليوكى كومى Leuke Kome) ، وكان ذلك حوالى العام الرابع والعشرين قبل الميلاد (٥٣). وهذه الاستعدادات تدل بوضوح على مدى الاهتمام الذى كان يوليه الرومان لهذه الحملة وما يؤملون عليها من نجاح .

غير أن هذه الحملة بكل ما توافر لديها على هذا النحو ، حققت فشلا ذريعا فى جانبيها العسكرى وبالتالى السياسى ، إلا أن ذلك لم يهن من عزم أوغسطس ، بل راح هو وخلفاؤه من بعد يبدون اهتمامهم المتزايد بهذه المنطقة وطرقها التجارية ، وأدى ذلك إلى تحول جانب من تجارة الشرق من ميناء «ليوكى كومى» إلى ميناء «ميوس هرموس» المصرى (أبو شعر القبلى حاليا) (٥٤). ومع إدراك أباطرة الرومان لصعوبة الغزو العسكرى المباشر لجزيرة العرب وجنوبها ، لطبيعة المنطقة وبعد الشقة ، ازداد الاهتمام بتقوية أسطولهم التجارى فى البحر الأحمر ، وتحسين علاقاتهم السياسية مع زعماء القبائل العربية ، وتعزيز تحالفهم مع مملكة أكسوم ، للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية ، وتحقيق أهدافهم السياسية (٥٥).

ومع تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، «كديانة شرعية» riligio Licita فى أول الأمر على يد الإمبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦-٣٣٧) ثم ديانة رسمية مع نهاية القرن الرابع الميلادى زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول(٥٦) Theodoius I

٥٣- راجع تفاصيل هذه الحملة عند عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية ص٦٣-٦٧، ١٣٤، وأيضا جواد على : تاريخ العرب جـ٢ ص٤٤-٥٩ ، وكذلك بافقيه : تاريخ اليمن القديم ص٨٢-٨٣ .

٥٤- عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ص١٣٥ .

٥٥- للوقوف على تفاصيل مشروعات الأباطرة الرومان فى سبيل الحفاظ على نفوذهم ومصالحهم فى هذه المنطقة على عهود تراجان فى القرن الثانى الميلادى، وسبتميوس سفروس فى القرن الثالث الميلادى ، راجع جواد على جـ٢ ص٦٠ ، ٦٥ -٦٨ .

٥٦- راجع تفصيلات هذه الأحداث والأدوار التى مرت بها المسيحية من خلال موقف الأباطرة الرومان منها فى مؤلفات الباحث ، الدولة والكنيسة ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٩٨٢-١٩٨٤ .

(٣٧٨-٣٩٥) ، ظهر على مسرح الأحداث عامل جديد، كان له دوره الفعال فى تسيير سياسة الإدارة الحكومية فى القسطنطينية؛ فالإمبراطور الرومانى باعتباره أولا «مبعوث الرب»[٥٧] إلى الناس، ثم «نائب المسيح» Vicarius Christi على الأرض من بعد ، أصبح «مصباح الأرثوذكسية» وحامى ذمار «الإيمان القويم» وأسقف المسيحيين خارج دولته، والمسئول عن التبشير بالمسيحية بين «الأمميين» [٥٨]. وهذه كانت تمثل حجر الزاوية فى الالتزامات المنوطة بالإمبراطور باعتباره كما ذكرنا «نائب المسيح» على الأرض .

وفى هذا السبيل أرسل الإمبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) بعثة قام بها ثيوفيلوس Theophilus حوالى مطلع النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، إلى اليمن للتبشير بالمسيحية بين الحميريين [٥٩]، حتى إذا نجحت هذه البعثة التبشيرية فى مهمتها ، كان ذلك يعنى تلقائيا امتداد النفوذ البيزنطى إلى تلك المنطقة ، فقد كانت الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، تضع بين قواعدها الرئيسية التى ترتكز عليها، أن يتبع النفوذ السياسى البيزنطى الأسقف الأرثوذكس أينما حط رحاله ووصلت دعواه ، والأمثلة على ذلك عديدة طوال امتداد التاريخ البيزنطى [٦٠].

ولايغيب عن أذهاننا أن قسطنطيوس كان يدين بالمذهب الآريوسى[٦١] ويسعى جهده لفرضه

٥٧- هكذا كان يحلو لقسطنطين أن يسمى نفسه، راجع للباحث : الدولة والكنيسة جـ٢ ص١١٢- ١١٩ .

٥٨- كتب قسطنطين الأول رسالة إلى ملك فارس ، يحثه فيها على معاملة رعيته المسيحية معاملة طيبة، وأن ينزلهم منزلا كريما ، وإلا فإنه سوف يجلب على نفسه عداء «مبعوث الرب» (يعنى نفسه) ، الذى لابد أن ينتقم لما قد يحل بهؤلاء الرعايا المسيحيين فى فارس ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة جـ٢ ص١١٢- ١١٤ .

٥٩- ATHANAS . apologia ad Constantium , 31 .

٦٠- راجع الفصل السابق من هذا الكتاب .

وراجع أيضا . Bury , history of the Later Roman Empire, II . p. 292

وكذلك . Diehl , Byzantium : Greatnes and Decline, p. 59

٦١- عن الآريوسية : نشأتها وفكرها ورجالها ، وكذا النيقية ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة جـ٢ ص١٥٥ - ٢٥١ .

على كل الكنائس فى شطرى الإمبراطورية، شرقا وغربا ، ولما كان يعلم أن كنيسة أكسوم تدين بالمذهب النيقى، منذ قام الأسقف السكندرى أثناسيوس Athanasius (٣٢٨-٣٧٢) برسم فرومنتيوس Fromentius أسقفا عليها فى أربعينيات القرن الرابع، فقد حاول أن يجعل من ثيوفيلوس هذا الآريوسى فى اليمن ، منافسا لهذا الأخير ، النيقى، فى أكسوم ، خاصة بعد أن فشلت مهمته لدى ملك أكسوم، عندما حاول أن يحمله على العداء لأثناسيوس السكندرى[٦٢].

ولايبعد مطلقا أن يكون ثيوفيلوس قد حمل إلى جانب مهمته التبشيرية ، مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن، والعمل معا لمجابهة السيادة البحرية التجارية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق [٦٣]، ويزيد من حرصه على ذلك الهزائم التى كانت تتلقاها الإمبراطورية على يد الفرس فى أعالى الفرات فى تلك الفترة .

ولم يفتر الاهتمام الرومانى بهذا الشريان الحيوى الهام ، رغم الاضطرابات السياسية الداخلية التى عانت منها القسطنطينية خلال القرن الخامس الميلادى، ممثلة فى الصراع السياسى بين الأحزاب الرومانية والجرمانية والأيزورية فى العاصمة [٦٤]، بالإضافة إلى الخلافات العقيدية الحادة التى دهمت الكنيسة المسيحية فى الولايات الشرقية بشكل خاص، وأسفرت عن انقسام خطير بين كنيستى القسطنطينية وروما من ناحية ، وكنيستى الاسكندرية وأنطاكية من ناحية أخرى، بحيث أصبحت العاصمة الإمبراطورية تدين بالأرثوذكسية الخلقيدونية ذى الطبيعتين فى المسيح ، بينما تؤمن كنائس الشرق البيزنطى بالأرثوذكسية ذى الطبيعة الواحدة [٦٥]. ورغم كل ذلك فقد كانت الإدارة الإمبراطورية فى القسطنطينية

٦٢- للوقوف على تفصيلات الأحداث التى امتلأت بها هذه الفترة ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة جـ٣ ص١٨٥-١٨٧ ، ٢٣٢-٢٣٤ .

٦٣- Dvornik, origins of the intelligence Services, p. 169 .

وأيضا : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص٣٨ - ٣٩ .

٦٤- راجع تفصيلات ذلك فى . Jones, Later Roman Empire, I , pp . 225 -230

٦٥- يمكن التعرف على كل هذه الخلافات العقيدية التى حدثت فى القرن الخامس فى Hefele, history=

تدرك مدى الخطورة الكامنة التى يمكن أن تترتب على هذا الخلاف العقيدى ، خاصة بينها وبين أكسوم، التى كانت تتبع الأسكندرية رعويا ، وبالتالى المسيحيين فى حمير، والذين يتبعون الكنيسة الحبشية ، وبالتالى الكنيسة السكندرية؛ ذلك أن النساطرة القائلين ببشرية العذراء أم المسيح، المغلبين ناسوت المسيح على لاهوته ، على عكس أصحاب الطبيعة الواحدة(٦٦) ، والذين كانوا ينتشرون فى المناطق الشرقية ويحظون بحماية الدولة الفارسية ، سارعوا إلى انتهاز هذه الفرصة للتبشير بعقيدتهم فى بلاد اليمن ، حيث كان لهم وجودهم فى جزيرة سوقطرة Sukhatara وفى بعض الموانئ اليمنية (٦٧).

ومع أن هذا النشاط التبشيرى لم يلق استجابة من جانب مسيحيى تلك المناطق ، إلا أن بيزنطة تدرك جيدا أن أصابع فارس وراء هذه الجهود النسطورية . ورغم أن الفرس لم يكن يعنيهم فى شئ أمر المسيحية ، بل كان بالتأكيد يغضبهم أن تنتشر هنا أو هناك ، إلا أنهم رأوا فى هؤلاء النساطرة ورقة ، ربما تصبح رابحة، إذا أجادوا اللعب بها فى صراعهم مع الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أدق وصف لهذه الحال، ما جرى به قلم «جواد على»(٦٨) بما

= of the Councils, vols, II , III وأيضا Percival, The Seven ecumenical councils, in Nicene and post Nicene Fathere , vol . XIV

٦٦- النساطرة هم أتباع نسطور Nestorius بطريرك كنيسة القسطنطينية فى عشرينيات القرن الخامس الميلادى ، نادى بأن العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم المسيح الإله ، مغلبا بذلك الطبيعة البشرية فى المسيح على الطبيعة الإلهية ، جهر بآرائه عام ٤٢٨ وتصدت له كنيسة الاسكندرية فى عهد أسقفها كيرلس Cyrillus ومن ورائها روما ، ومن ثم دعا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى عقد مجمع فى مدينة إفسوس Ephesus فى آسيا الصغرى، عرف بالمجمع المسكونى الثالث عام ٤٣١ ، تقرر فيه إدانة نسطور ونفيه ولعن النسطورية ومطاردة أتباعها، مما اضطر هؤلاء إلى اللجوء إلى الأراضى الفارسية . راجع :

Hefele , history of the Councils, III pp. 9-79

وأيضا Chadwick, The Early Church , pp. 194-200

وأنظر أيضا الفصل الثانى من هذا الكتاب .

٦٧- Trimingham , Christianity among the Arabs, p. 303.

٦٨- جواد على : تاريخ العرب القديم جـ٣ ص٤٩٠-٤٩١ .

نصه : « ... كان العالم آنذاك – كما هو الآن – (قبل التسعينيات)– جبهتين، غربية وشرقية، الروم والفرس ، ولكلٍّ طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل (ونضيف نحن ، وزعماء الفرق الدينية) ، يطبلون ويزمرون، ويرضون أو يغضبون ، يثيبون أو يعاقبون إرضاء للجهة التى هم فيها. لقد سَخَّر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب، أو إبعادها عن الفرس وعن الميالين إليهم على الأقل، وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى المحيط الهندى، والاتجار مع بلاد العرب. وعمل المعسكران على نشر وسائل الدعاية وكسب معركتها والفكر ، فسعى الروم لنشر النصرانية فى الجزيرة ، وحرضوا الحبشة على نصرها ونشرها ، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ، ولتأييد اليهودية أيضا ، ولم يكن دين الفرس يهوديا ولانصرانيا ، ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية أيضا خالصا من الغرض أو بريئا » .

لهذا .. ما أن اعتلى الإمبراطور أنسطاسيوس Anastasius (٤٩١–٥١٨) العرش ، وأعلن تخليه تدريجيا عن الأرثوذكسية الحكومية– الخلقيدونية – وممالأته للأرثوذكسية المونوفيزيتية، حتى سعى جهده لدرء هذا الخطر الفارسي، المستتر برداء النسطورية ، حيث سارع إلى إرسال عدد من الأكليروس ورجال البلاط إلى أكسوم واليمن لإقامة عدد من الكنائس بهدف إعادة الثقة بين المسيحيين هناك فى السياسة العقيدية البيزنطية ، وجذب ملك حمير ثانية إلى جانب القسطنطينية بعيدا عن الطموحات الفارسية [٦٩]. ومع أن الأمبراطور جوستين الأول (٥١٨–٥٢٧) الذى خلف أنسطاسيوس ، قد تراجع عن سياسة سلفه العقيدية ، وعاد إلى الأخذ بالأرثوذكسية الخلقيدونية ، حتى يحظى بتأييد كنيسة القسطنطينية ، ليضفى على اعتلائه العرش الإمبراطورى شرعية كان يفتقر إليها فى أول عهده ، إلا أن الأحداث التى وقعت فى اليمن فى ذلك الوقت ، جذبت انتباه القائمين بالأمر فى العاصمة البيزنطية ، وأضافت بعدا جديدا للصراع البيزنطى الفارسى حول هذه المنطقة بأسرها .

٦٩– Dvomik, Origins of the intelligence Sevices , pp. 168-169 .

وأيضا Jones, Later Roman Empire, I, pp. 232-235.

وكذلك Milne, A history of Egypt under Roman rule, p. 103 .

لقد كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية ، مع بدايات القرن السادس الميلادى، تتربص كل منهما بالأخرى ، ولم يكن ذلك شيئا جديدا بل كان امتدادا لتاريخ طويل من الصراع بينهما عبر قرون عدة خلت ، يدعمه اختلاف وبالتالى تباعد حضارى كبير بينهما ، وتقارب فى الحدود أو تماس فى بعض المواضع ، يزيد من هذا التباعد ويؤجج نيران العداء . وزاد النار ضراما انتقال العاصمة الرومانية من على ضفاف التيبر فى الغرب ، إلى شطآن البسفور فى الشرق ، لتصبح أنظار الساسة فى القسطنطينية على مقربة جداً من مطامح الساسانيين فى طيسفون Ctesiphon (المدائن) ومطامعهم .

وكان أكاسرة الفرس قد وصلوا بدولتهم آنذاك إلى درجة كبيرة من القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وراحوا يهددون التخوم البيزنطية والولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، وكانت مناطق الحدود ، خاصة عند أرمينيا وإيبريا ولازيقا ، تعد بصفة دائمة نقاط نزاع مستمر بينهما ، واجتاحت الجيوش الفارسية هذه المناطق أكثر من مرة خلال القرون من الثالث إلى الخامس ، وإذا كانت القسطنطينية قد أفلحت فى التصدى فى بعض الأحيان لهجمات الفرس ، واستعادة سيطرتها هناك ، إلا أن ذلك كان يسبب قلقا دائما وصداعا مستمرا لصانعى السياسة البيزنطية .

وزاد من رجحان كفة الفرس ، أن الجيش الرومانى لقى الهزيمة على أيديهم عام ٣٦٣ ، وقتل الإمبراطور جوليان Iulianus واضطر خليفته جوفيان Iuvianus (٣٦٣-٣٦٤) أن يوقع معاهدة مهينة، تنازل فيها عن عدد من مناطق الحدود الرومانية [٧٠]، وزاد الأمر سوءاً أنه لم يكد يمضى على ذلك أكثر من خمسة عشر عاما، حتى منيت الإمبراطورية بهزيمة مروعة على يد القوط الغربيين Visigoths الجرمان سنة ٣٧٨ فى معركة أدريانوبل Adrianopolis حيث قتل الإمبراطور فالنز Valens وخسرت الإمبراطورية على أقل تقدير خمسة وأربعين ألف جندى، واكتسحت العناصر الجرمانية الأخرى ، النصف الغربى من الإمبراطورية، وأقامت على امتداد القرن التالى (الخامس) عددا من الممالك [٧١]، بحيث فقدت الإمبراطورية شطرها ذاك، ولم يبق لها إلا ولاياتها الشرقية المواجهة للدولة الساسانية .

٧٠- رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة جـ٣ ص٣٥٧ .

٧١- كانت هذه الممالك هى: مملكة الوندال فى أفريقيا ، ومملكة القوط الغربيين فى إسبانيا ، مملكة الأنجلوسكسون فى بريطانيا ، مملكة الفرنجة فى غالة (فرنسا) ، ومملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا .

ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها الإمبراطور ثيودوسيوس الأول لإقالة الإمبراطورية من عثرتها عقيب هذه المذبحة فى أدريانوبل، إلا أنه لم يستطع أن يوقف هطول الجرمان على الإمبراطورية، أو يتصدى لأطماع الفرس على جبهته الشرقية ، فاضطر إلى عقد اتفاقية معهم قضت بتقسيم أرمينية بينهما ، رغم أنها كانت قد تحولت مؤخرا إلى المسيحية . وبموت ثيودوسيوس جاء الطوفان ولا عاصم ، حيث ضاع النصف الغربى تحت وطأة ضربات القبائل الجرمانية المتصاعدة ، وخضع الشطر الشرقى لسلسلة من الأباطرة الضعاف الذين عجزوا إلى حد كبير عن مواجهة هذه التحديات المتلاحقة ، وانغمسوا حتى آذانهم فى الخلافات الكريستولوجية التى دارت حول طبيعة المسيح ، وشغلت القرن الخامس كله، وتركت بصماتها واضحة على علاقة القسطنطينية بولاياتها الشرقية ، التى اتخذت فى جملتها - كما أسلفنا- مذهبا يخالف ما آمنت به العاصمة الإمبراطورية .

ولاشك أن فارس وجدت فى هذه الظروف السيئة التى تحيط بعدوها التقليدى ، فرصة سانحة لتحقيق أهدافها : فقد كان يعنيها فى المقام الأول أن تقفز إلى الولايات الشرقية للإمبراطورية ، ليصلها ذلك مباشرة بالبحر المتوسط الذى كان يعد المركز الحضارى آنذاك ولفترات تاريخية طويلة ، سابقة على هذا التاريخ أو لاحقة . وكان هذا شيئا واضحا تماما فى اتجاهات السياسة الفارسية منذ زمن بعيد ، يعود إلى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وراحت هذه الاتجاهات تزداد وضوحا ، بعد أن اعتلت الأسرة الساسانية عرش الأكاسرة فى القرن الثالث الميلادى[٧٢]. وبعد أن انتقلت حاضرة الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى[٧٣].

٧٢- كانت أول تجربة عملية فى هذا السبيل آنذاك ، الحرب التى دارت بين الفرس والرومان فى عام ٢٦٠، وتمكنت فارس من إنزال هزيمة ساحقة بروما وأخذ الإمبراطور الرومانى ڤاليريان Valerianus أسيرا مما عد إذلالاً للإمبراطورية .

٧٣- يستثنى من ذلك طبعا الفترة التى خضعت فيها القسطنطينية لسيادة العناصر اللاتينية ، نتيجة الحملة الصليبية الرابعة والتى امتدت إلى سبع وخمسين سنة بين عامى ١٢٠٤- ١٢٦١ .

وكانت هناك أمور أخرى لاتقل عن ذلك أهمية، فالأطماع الفارسية تجاه المناطق الواقعة على الحدود الشرقية ، والتى كان الفرس يعتبرونها امتدادا طبيعيا لدولتهم ، اصطدمت فى القرنين الرابع والخامس بزحف الهون Hunni ، القبائل الآسيوية التى اكتسحت وسط آسيا وامتد طوفانها إلى قلب الإمبراطورية الرومانية ، مرورا بشمالى فارس عند بحر قزوين . ولم تكد فارس تفيق من ذلك ، بعد أن لقى الهون هزيمة قاسية على يد الرومان عند شالون سنة ٤٥١ ، وتصدع «إمبراطورية الخيام»[٧٤] هذه بعد موت زعيمها أتيلا Atilla عام ٤٥٣ ، حتى وجدت إلى جوارها قوة أخرى تتمثل فى بعض القبائل التركية التى انضمت إلى بعضها البعض فيما يشبه اتحادا كونفيدراليا فى منطقة آسيا الوسطى [٧٥]. هذا بالإضافة إلى ظهور قوة جماعات الهون مرة أخرى فيما عرف بقبيلة «الهياطلة» أو الهون البيض ، الذين أوقعوا بفارس هزيمة قاسية عام ٤٨٤ ، واضطروها أن تدفع لهم الجزية حتى منتصف القرن السادس الميلادى[٧٦].

واستشعرت فارس الخطر داهما ، عندما تحولت كل من إيبريا Iberia ولازيقا Lazica الواقعتين على حدودها مع بيزنطة ، والمتنازع عليهما دائما ، منضما إليهما أرمينية ، إلى المسيحية ، بعد اعتناق ملكيهما لهذه العقيدة ، وقصدهما إلى القسطنطينية ، وما صحب ذلك من مظاهر الحفاوة البالغة التى لقياها فى العاصمة الإمبراطورية، وما أفاض به عليهما الإمبراطور من الخلع الثمينة والحلى وألقاب التشريف [٧٧]. وتلك كانت إحدى الدعائم

٧٤- هذا التعبير استخدمه ب . كاسل أحد مستشرقى القرن التاسع عشر، للدلالة على حقيقة الإمبراطورية التى كونها الهون خلال القرن الخامس الميلادى، وامتدت من وسط آسيا حتى وسط أوروبا . نقلا عن : كوستلر : إمبراطورية الخزر وميراثها ، ص٢٣ .

٧٥- كوستلر : إمبراطورية الخزر ص٣١ ؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص٣٠٥ .

٧٦- توينبى : تاريخ البشرية جـ٢ ص٣٢-٣٣ ، ٤٣ .

٧٧- MALALAS, Chron. pp. 413-429 .

وأيضا CHRON. PASCH. , pp. 613-614 .

وكذلك Holmes, The Age of Justinian and Theodora, I, p. 311 .

الأساسية للدبلوماسية البيزنطية [٧٨]. وقد تزامنت هذه الأحداث تقريبا (حوالى ٥٢٢-٥٢٥) مع ما جرى فى اليمن ، وقيام الأحباش بدفع جيوشهم إلى هناك .

ومع إدراك الفرس أن الرومان ، عن طريق حلفائهم الأحباش ، قد كسبوا أرضا جديدة فى أقصى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية، مع كل ما تمثله المنطقة من أهمية استراتيجية واقتصادية ، وما أيقنوا أنه يمثل خطرا فادحا ، بتحول مناطق الحدود الشمالية إلى المسيحية ، بعد أن سبقتهما أرمينية إلى ذلك منذ القرن الرابع الميلادى ، فقد أقدم الفرس دون توان على احتلال إيبريا ثم لازيقا سنة ٥٢٦ / ٥٢٧ [٧٩]. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذا التاريخ ليس ببعيد عن السنة التى شهدت الغزو الحبشى لليمن (حوالى سنة ٥٢٥) . وإذا كانت كل من أكسوم ومن ورائها القسطنطينية قد تذرعتا بحماية المسيحيين فى حمير ، فقد أعلن ملك فارس أن احتلاله لهاتين المنطقتين هو من قبيل حماية معتنقى الزرادشتية فيهما [٨٠]. وتلك مسألة لاتحتاج إلى تعليق حول مناطق النفوذ ، سواء كان ذلك فى أقصى الشمال عند البحر الأسود وبحر قزوين ، أو عند الجنوب القصى فى بلاد العرب السعيدة ، والتى كان كل من القوتين العظميتين آنذاك يسعى للسيطرة عليها فى إطار سياسة التوازن الدولى.

وكان طبيعيا أن ترد القسطنطينية على ذلك ، وهى تدرك خطورة اقتراب الفرس من البحر الأسود ، مما يعد تهديدا مباشرا لها ، لذا فقد هاجمت الجزء الفارسى من أرمينيا ، وعادت هذه القوات محملة بالأسرى والغنائم ؛ إذ لم يكن يعنيها آنئذ أن تحتل أرمينيا الفارسية ردا على احتلال الفرس لإبريا ولازيقا ، بل كان كل ما تريده إظهار قوتها لخصمها، بأنها قادرة على التصدى له بالمثل ، يدفعها إلى ذلك شغلها الشاغل المتمثل فى محاولة استرداد ولايات النصف الغربى من الإمبراطورية، والتى كانت قد ضاعت على يد الجحافل الجرمانية .

٧٨- راجع الفصل السابق .

٧٩- PROCOP . Bell . Pers. I, p. 93 .

وراجع Stein, histoire du Bas- Empire II, p. 270.

٨٠- Bury, Later Roman Empire II, p. 80 .

وأيضا Benjamin , Story of Persia, pp. 231-232.

وكانت هذه النقطة الأخيرة مما يزيد الإمبراطورية الفارسية ، على عهد ملكها الجديد كسرى أنوشروان Chosroes Anushirvan حنقا وغيظا ، وهى ترى جارتها تستعيد قوتها وحيوتها على عهد إمبراطورها جوستنيان الأول Iustinianus I الرومانى القلب والقالب ، والذى كان يؤمن باليقين كله أن إمبراطورية رومانية لايستقيم أمرها ولاحتى اسمها ، دون روما القديمة على ضفاف التيبر، والتى أخضعت جبينها كارهة لقبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الجرمانية ، وأن روما الجديدة عند البسفور لاتغنى عن سميتها القديمة شيئا ، ومن ثم وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش ، خلفا لخاله جوستين ، أن يسترد من أيدى الجرمان ، ولايات الغرب الرومانى الضائعة ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، وليس أدل على ذلك من أن الرجل أمضى نيفا وخمسا وعشرين سنة ، من فترة حكمه البالغة ثمانية وثلاثين عاما ، يدفع بجيوشه وخزائنه لحرب الممالك الجرمانية التى قامت فوق الأرض الرومانية فى الغرب ، كان من بينها ثلاثة وعشرون عاما كاملة (٥٣٣-٥٥٥) أنفقها فى استرداد إيطاليا وحدها .

ولما كانت الدبلوماسية البيزنطية تعتمد أساسا فى جوهرها على عدم خوض حرب فى جبهتين فى وقت واحد [٨١]، فإن جوستنيان لم يعمد- كما رأينا- إلى احتلال أرمينية الفارسية ، إذ لم يكن على استعداد للدخول فى حرب سافرة مع فارس ، قد تؤدى إلى معركة حاسمة يعرف مقدما أن فرصته فيها قليلة ، ما دامت جيوشه تعمل فى الغرب ، من هنا ظل حريصا طيلة عهده (٥٢٧-٥٦٥) على أن تبقى حروبه مع فارس ، مجرد مناوشات على الحدود ، تعقبها المفاوضات لعقد هدنة أو إقرار معاهدة للسلام ، يُسكت من خلالها جوستنيان خصومه إلى حين ، بما يقدمه إليهم من الأموال جزية كل عام . وقد نجحت الدبلوماسية البيزنطية على عهد جوستنيان فى هذا المجال نجاحا منقطع النظير ، وإن كان على حساب الخزانة الإمبراطورية . وهذا واضح تماما من المراسلات التى دارت بين كل من عاهلى فارس وبيزنطة [٨٢].

٨١- راجع الفصل السابق .

٨٢- يبدو من هذه المراسلات مدى حرص جوستنيان على إحلال السلام بين الدولتين ، ليتمكن من تحقيق مشروعه الاستردادى فى الغرب ، فقد جاء فى إحدى رسائله إلى قباذ قوله : «علمنا من رسلنا بعد عودتهم =

كان الفرس يدركون ذلك كله جيدا ، ويستشعرون خطورة الانتصارات التى قد يحققها خصمهم فى الغرب ، مخافة أن تنتهى الحرب الاستردادية سريعا ، فتستدير القسطنطينية - كعادتها - لمجابهتهم والتفرغ لهم ، وزاد من مخاوفهم أن جوستنيان تمكن من القضاء على الثورة الشعبية العارمة التى استهدفت قلب نظام الحكم فى أول عام ٥٣٢ ، وخرج منها أقوى بأسا وأشد قوة [٨٤]، ليتربع على عرش الإمبراطورية من بعد أربعا وثلاثين سنة .

ولم يكن بخاف على جوستنيان ، القلق الذى يستبد بالفرس تجاه مشروعاته الاستردادية ، ولا كان غافلا عن طموحاتهم وأطماعهم فى ولاياته الشرقية ، ولا كان على استعداد لخسارة هذه المناطق التى يرتكز عليها اقتصاد الإمبراطورية لحساب ولايات الغرب الفقيرة ، وكان يدرك أن الفرس يعانون من ثقل وطأة الجزية التى يدفعونها سنويا للهون البيض على حدودهم الشرقية ، ومن ثم كان على استعداد لتعويضهم عن هذا الذى يدفعونه لقاء سكوتهم عن حروبه الاستردادية فى الغرب ، وتركه يتفرغ لانجاز هذا المشروع الضخم الذى يعتبر حجر الزاويه فى سياسته الخارجية .

وإذا أضفنا إلى هذا كله أن العملة الساسانية كانت تضرب بشكل عام من الفضة ، وأنها نادرا ما كانت تسك من الذهب [٨٤]، أدركنا لماذا كان يسيل لعاب الفرس للحصول على النقود البيزنطية الذهبية. وتدلنا رسالة بعث بها الملك الفارسى قباذ - سلف كسرى - إلى جوستنيان ، على صدق ذلك ، فقد ورد فيها : « ... لقد تأكد لدينا أننا إخوة يعين أحدنا الآخر فى حاجته، وعليه إذ دخلنا فى معارك مع أعدائنا المجاورين ، ودفعنا لبعضهم الأموال استرضاء ، فقد أفلست خزائننا ، ولما لم تفلح محاولاتنا مع سلفيكم أنسطاسيوس وجوستين ، لتقديم الأموال إلينا ، اضطررنا لمهاجمة حدودكم حتى نحذركم، إما الحرب وإما المال» [٨٥].

= من ضيافتكم صدق نياتكم ، ... وإنه لمن حق الله علينا أن نحمده شاكرين فضله حتى يتحقق السلام بيننا. إن هذا السلام لأمر عظيم ، يحمل لبلدينا الأمن والرخاء ، ويزيح من أمامنا أعداءنا ، ولتكن على يقين من أننى سوف أعهد إلى ممثلينا دائما بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم كى تنجح مفاوضات السلام هذه، ودمتم لنا محبا ودودا». راجع . MALALAS , Chron., pp. 449-450.

٨٣- أنظر الفصل الخامس من هذا الكتاب .

٨٤- Ghirshman, Iran from the Earliest times to the Islamic conquest, p. 341 .

٨٥- MALALAS . Chron . pp . 454-455 .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية على عهد أنسطاسيوس قد تعهدت فى عام ٥٠٥، بمقتضى معاهدة السلام التى وقعتها مع فارس ، بعد الهجمات التى تعرضت لها من جانب قباذ ، بدفع مبلغ خمسمائة رطل من الذهب سنويا[٨٦]، غير أن هذا الرقم ارتفع فى معاهدة السلام التالية التى وقعت سنة ٥٣٢ والتى عرفت بمعاهدة السلام الدائم، ليصل إلى أحد عشر ألف رطل من الذهب سنويا. ولما كان من المستحيل أن يدوم السلام ، فقد قبل جوستنيان فى عام ٥٤٥ مكرها أن يقدم لفارس ألفى رطل من الذهب مقابل عقد هدنة مدتها خمس سنوات[٨٧]. وما أن انقضى أجل الهدنة ، حتى كان على القسطنطينية عند تجديدها سنة ٥٥١ لمدة خمس سنوات أخرى أن تدفع ألفين وستمائة رطل من الذهب [٨٨]. حتى إذا جاء عام ٥٦٢ وتم توقيع معاهدة سلام جديدة مدتها خمسون عاما ، كان على الإمبراطورية أن تدفع ثلاثين ألف رطل من الذهب دفعة واحدة مقدما عن السنوات السبع القادمة ابتداء من عام ٥٦٢ ، وأن تدفع فى بداية السنة الثامنة ، ما يعادل جزية ثلاث سنوات تالية ابتداء من عام ٥٦٩ ، ثم تدفع الأقساط بعد ذلك بانتظام إلى نهاية السنوات الخمسين التى حددتها المعاهدة [٨٩].

واضح إذن أن الفرس كانوا يصرون على استنزاف الذهب البيزنطى التى امتلأت به خزائن الإمبراطورية، والذى حدث عنه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى[٩٠] Ioannes Lydus بقوله إنه كان آلافا من أرطال الذهب يصعب حصرها وذلك عند وفاة الإمبراطور أنسطاسيوس عام ٥١٨ ، بينما قدره بروكوبيوس بما يقرب من ثلاثمائة وعشرين ألف رطل من الذهب ، زاد على مدار السنوات التسع التى أمضاها جوستين على العرش ، حسب رواية بروكوبيوس، على ما ادخره

٨٦- ZACH. MET. Chron., p. 163 ; PROCOP. Bell . pers. I, p. 77 .

٨٧- PROCOP. Bell. Goth. II., p. 517 .

وأيضا Ure, Justinian and his Age, p. 77 .

٨٨- PROCO. Bell Goth. II , pp. 536-537 .

٨٩- MENAN. excer. de Leg. Roman . pp. 359-363 .

وراجع Ure, Justinian, pp. 97-99 .

٩٠- IOAN. LYD. de magist. p. 244.

وقارن PROCOP. hist. arc. p. 137 .

أنسطاسيوس على امتداد عهده البالغ سبعا وعشرين سنة [٩١]، بالإضافة إلى ما جمعه جوستنيان نفسه طيلة أيامه ، وهو كثير، ومع كل هذا أمست الخزانة البيزنطية فعلا فى نهاية عهد جوستنيان ، تعانى الإفلاس من جراء هذا النزيف المتدفق باتجاه فارس ، وتيار الانفاق الهادر بلا حساب على آتون الحرب الاستردادية في الغرب، بعد أن فشلت خطته القائمة على أن الحرب تأتى بنفقات الحرب، ثم المنشآت المعمارية الضخمة ، العسكرية منها والمدنية على حد سواء .

ولعله مما يؤكد حرص الفرس على الذهب البيزنطى، أنهم راحوا منذ عام ٥٢٩ يثيرون فى مفاوضاتهم مع البيزنطيين، مسألة استعادة منجمين للذهب كانا يقعان على الحدود بين أرمينيا الفارسية وأرمينيا الرومانية، مرددين دائما أن الإمبراطور أنسطاسيوس كان قد استولى عليهما ، وظلوا يلحفون فى طلبهم رغم توقف المفاوضات أكثر من مرة ، إلى أن تحقق لهم ما أرادوا بمقتضى معاهدة السلام الدائم التى وقعت عام ٥٣٢ ، والتى نصت على عودة المنجمين إلى السيادة الفارسية [٩٢].

وكانت لهفة الفرس على العملة الذهبية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه، مخاوفهم وطموحاتهم ، كلها فى وقت واحد ، تزداد كلما صكت مسامعهم أنباء انتصارات يحققها جوستنيان فى حروبه الاستردادية ، فقد أذهلتهم مفاجأة استعادة الإمبراطور لولاية أفريقيا الرومانية من يد الوندال Vandal إثر حملة خاطفة قام بها قائده الأشهر بليزاريوس Blisarius عام ٥٣٣ وعاد منها إلى القسطنطينية وفى ركابه الملك الوندالى جليمار Glimer أسيرا ، وبين يديه الكنوز الضخمة التى كان الوندال قد سلبوها من كنيسة القديس بطرس فى روما ، عند مهاجمتهم لإيطاليا عام ٤٥٥ ، عندها لم يتمالك الملك الفارسي نفسه من الغيظ ، فكتب إلى الإمبراطور البيزنطى يطلب إليه اقتسام هذه الأسلاب باعتباره شريكا فى صنع هذا النصر، بالتزامه الحياد بمقتضى معاهدة سنة ٥٣٢ !! والطريف أن جوستنيان رغم اشمئزازه من هذا المطلب الفارسى ، إلا أنه حقق رغبة العاهل الفارسى وأرسل إليه بعض الأموال فى شكل الهدية على سبيل الترضيه !! [٩٣].

٩١- Id.

٩٢- PROCOP. Build. pp. 133-135 .

٩٣- PROCOP . Bell . pers. I, p. 253 .

ولم يكد يمضى على ذلك سبعة أعوام ، حتى كان بليزاريوس قد نجح عن طريق الخديعة ، فى القبض على ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا ، ودخول العاصمة رافنا Ravenna ، وهئ للجميع ساعتها أن مملكة الأوستروقوط هذى قد دالت [٩٤]، فغلت فى عروق الساسانيين دماء الغيظ والخوف فى وقت واحد ، فاندفعت جيوشهم لا تلوى على شئ ، لتخرب أجزاء متفرقة من الولايات الرومانية الشرقية ، ولتستولى على لازيقا ثانية والجزء البيزنطى من أرمينية ، ولتقفز إلى ساحل البحر المتوسط ، المركز الحضارى باحتلال أنطاكية فى العام نفسه (٥٤٠) ، لتحقق بذلك حلما طالما راودها ، وإن كان ذلك إلى حين ، إذ سرعان ما انسحبوا بعد أن قدم لهم جوستنيان عام ٥٤٥ نقوده الذهبية !!

لم يكن أمام الإمبراطورية البيزنطية ، رضيت أم كرهت ، إلا أن تدفع بسخاء كل ما يطلبه الفرس من الذهب، وهذا واضح من نصوص الاتفاقيات التى أشرنا إليها من قبل ، فلم تكن بيزنطة تستطيع أن تفعل غير ذلك ، وهى تضع نصب عينيها مشروعها الاستردادى الضخم، ودبلوماسيتها كما علمنا ، ترتكز على عدم الحرب فى جبهتين فى وقت واحد، ولم يكن الفرس وحدهم فى الميدان يرتجى سكوتهم ، بل كانت هناك شعوب قبلية عديدة تنزل عند حدود الإمبراطورية فى الشمال والشمال الشرقى والغرب، مثل الهون والعناصر التركية على اختلاف مسمياتها، والآفار والجبيد واللومبارد وغيرهم .. وكان على بيزنطة أن تستخدم أسلوب الترغيب أو الترهيب هنا وهناك حسب الظروف ، ومن هنا كان الفرس يحتلون المرتبة الأولى فى الأهمية ، حتى لاتعطيهم بيزنطة الفرصة للوصول إلى هذه القبائل ، يؤلبونها ضد القسطنطينية .

وكان مما يؤلم القسطنطينية إلى جانب هذا كله ، أن الفرس يسيطرون على الطريق الرئيسى الذى تسلكه تجارة الحرير القادم من الصين ، عبر وسط آسيا إلى الإمبراطورية البيزنطية ، والتى كانت تستورد منه كميات هائلة تستخدمها فى الحياة الاجتماعية والسياسية على السواء . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه إلى تحكم التجار الفرس فى كميات الحرير

٩٤- من المعروف أن الحرب استؤنفت من جديد بين البيزنطيين والقوط الشرقيين، بعد أن أدرك هؤلاء حقيقة الخديعة التى أوقعهم فيها القائد البيزنطى واستمرت هذه الحرب من بعد خمسة عشر عاما تالية حتى انتهت بهزيمة القوط عام ٥٥٥ فى موقعة عرفت باسم مقبرة الغال .

الصينى المتجهة غربا إلى بيزنطة عن طريق البحر ، أعنى المحيط الهندى وما وراءه سواء الخليج العربى أو البحر الأحمر ؛ فقد كانت سفن هؤلاء التجار تصل إلى بعض موانئ البحر الأحمر كما أشرنا من قبل، ومن ثم كانت سيادة فارس على طرق تجارة الحرير القادم إلى القسطنطينية براً أو بحراً يمثل غصة فى حلق العاصمة البيزنطية ، التى كانت تعتبر الحرير الصينى ضرورة حياة !!

لقد كانت القسطنطينية فى القرن السادس الميلادى، وعلى عهد جوستنيان ، تمثل بتعبيرنا الحديث ، باريس عصرها ، مدينة الأضواء والشهرة الذائعة ، يقصدها القاصى والدانى ، ويؤمها حجيج المعرفة وطلاب الحاجات ، والباحثون عن المتعة ، والمولعون بالثراء، والساعون للرزق ، تختلط فيها الأجناس ، وتختلف الألسنة ، وتتباين الأفكار. والمترفون من النبلاء ورجال السناتو ووجوه البلاط والأسرة الحاكمة ، يتبخترون فى ثيابهم الحريرية الرقيقة ، المزدانة بخيوط الذهب والمرصعة بالحلى والأحجار الكريمة !! ويدلون بذلك فى خيلاء على الوفود الأجنبية الآتية من كل صقع ، خاصة القبائل النازلة عند حدود الإمبراطورية ، والذين قدموا للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حربا، أو طمعا فى ألقاب التشريف، أو تطلعا إلى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب الحريرية ، التى تعتبرها شعوب تلك القبائل ، نوعا من التكريم الرومانى يتنافس فيه المتنافسون !!

وقد أمدنا الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع «الأرجوانى المولد Constantinus VII Porphyrogentius (٩٤٤-٩٥٩) فى كتابيه الرائعين «عن الإدارة الإمبراطورية» De Ad-minstrando Imperio وعن المراسم De Cermoniis بمادة علمية وافرة عن مظاهر الترف التى كان يحيا فيها البلاط البيزنطى ، وعن حاجة القسطنطينية الماسة دائما لهذا الحرير لإهدائه إلى زعماء الشعوب القبلية ، دليلا على المودة البيزنطية تجاههم. ويعلق هايد[٩٥] Heyd على ذلك بقوله : « لقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية مع البلدين ، الهند والصين . وكلما ضعفت إمكانية الإيهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة إلى استخدام مثل هذه الوسائل لتأكيد تفوق الإمبراطورية الرومانية . ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربرى وبين بيزنطة ضعيفة ، فإن هذه كانت

٩٥- التجارة فى الشرق الأدنى ص٣٢ - ٣٣ .

تهدى إليه أو إلى مبعوثيه أقمشة حريرية وأحجاراً كريمة وتوابل، كذلك كانت كميات كبيرة من الحرير تذهب إلى الغرب ، يهديها الإمبراطور إلى الكنائس أو إلى رؤساء الأساقفة فيها أو إلى بعض الأمراء ليصنعوا منها ثيابهم ، إعلاءً لهيبة البلاط». ويضيف مؤرخنا « من هنا كان الفرس يحرصون كل الحرص على أن لايصل الحرير إلى بيزنطة بطريق آخر غير الطريق الذى يجتاز بلادهم ، أو بأيد أخرى غير أيديهم» (٩٦). وكيف لا وقد أثروا من هذه التجارة ثراء حسنا (٩٧). ولذا .. فإن الطريق الوحيد للحصول على هذه المادة الخام الثمينة هو الاتفاق مع فارس . وفى هذا السبيل توصل الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus منذ أواخر القرن الثالث الميلادى ، إلى اتفاق مع الملك الفارسى نارسيس Narses بحيث أصبحت مدينة نصيبين Nisibe الفارسية ، السوق الرئيسى للحرير المستورد من الصين ، ومنها يصدر إلى مدن الإمبراطورية الرومانية (٩٨).

ولم تأل الدبلوماسية البيزنطية جهدا فى محاولات لاختراق هذا الحصار الفارسى لتجارة الحرير ، وفى سبيل ذلك كان جوستنيان حريصا على أن يمد نفوذه إلى شبه جزيرة القرم كلها بعد أن كان قاصرا فقط على مدينتى خرسون وبسفور(٩٩) وذلك بالإضافة إلى لازيقا وإقليم القوقاز ، هادفا بذلك إلى الالتفاف حول مناطق السيادة الفارسية من أجل الوصول إلى الحرير الصينى ، خاصة وأنه قد جرت محاولات بيزنطية للاتصال مع الأتراك فى إقليم ما وراء النهر، بعد أن تمكن خانات الترك من توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ، على النحو الذى

٩٦- المرجع نفسه ص١٧ .

٩٧- Bury, Later Roman Empire, II, p. 320 .

وأيضا حورانى : العرب والملاحة ص٩٧ .

٩٨- Dvornik, Origins of the intelligence Services, p. 168.

ومن المعروف أن نصيبين لم تكن وحدها فقط هى الموضع الوحيد لتسويق هذه التجارة ، إذ كانت هناك أيضا «الرقة» على الفرات ، وسهل دوبيوس Doubius فى أرمينيا الفارسية بالقرب من أرضروم Theodosiopolis، راجع . ZACH. MET. Chron. p. 5 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 25 , 30 .

٩٩- خرسون هى حاليا سباستبول، وبوسفور هى كرش .

أسلفنا[١٠٠]. ولعل هذا هو الذى يفسر بوضوح ذلك النقد اللاذع الذى وجهه بروكوبيوس القيسارى فى كتاباته إلى الإمبراطور جوستنيان ، عند فقدان لازيقا على يد الفرس عام ٥٤٠ متهما إياه بالتقصير فى الحصول على المعلومات الضرورية من عيونه حول تحركات الجيش الفارسى مما أدى إلى ضياع لازيقا [١٠١].

وكانت إدارة الخارجية البيزنطية تعلم يقينا أن جهودها لحرمان الفرس من الحصول على الأرباح الهائلة التى يجنونها بقيامهم بدور الوسطاء فى تجارة الحرير عبر الطريق البرى، لن تحقق النجاح الذى ترتجيه ، ولذا كانت تتحين الفرص للبحث عن طريق آخر يصلها مباشرة مع مراكز بيع هذه «المادة الثمينة» ، وسرعان ما جاءتها هذه الفرصة على غير توقع ، عندما وضع الأحباش أقدامهم فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ولم تتوان القسطنطينية عن تأييد الغزو الحبشى عسكريا ومعنويا ؛ فقد كانت سيادة حلفائها الأحباش على طرفى البحر الأحمر عند مدخله ، تضمن لهم طريقا بحريا آمنا ، كما أملوا، للحصول على الحرير الصينى بعيدا عن السيادة الفارسية [١٠٢] .

وليس بخاف على أحد، أن سيادة اليهود على اليمن قبل الغزو الحبشى، كانت تثير إلى حد كبير جدا مخاوف الساسة البيزنطيين، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود والإدارة البيزنطية، وما نتج عنه من اعتداء على التجار الرومان فى اليمن ، ولكن لما قد تمثله هذه السيادة اليهودية من امتداد للنفوذ الفارسى أيضا إلى هذه المنطقة الحيوية والهامة بالنسبة لبيزنطة . وتأكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس وملك الحيرة اللخمى، الذى كان يدور فى فلك السياسة الفارسية . هذا بالإضافة إلى أن أعدادا من يهود الفرس كانوا قد انخرطوا منذ زمن ليس بالقصير فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى، وحظوا بالاحترام، على حد تعبير المؤرخ الكنسى يوسيبيوس Eusebius القيسارى ، من جانب

١٠٠- أنظر قبله ، وأيضا، بارتولد : تركستان ص٣٠٥ .

١٠١- PROCOP . hist . arc. 30 .

١٠٢- أشرنا من قبل إلى محاولات بيزنطية جرت فى هذا السبيل ، وهى جهود كل من الإمبراطور قسطنطيوس فى القرن الرابع ، والإمبراطور أنسطاسيوس فى أواخر القرن الخامس الميلادى وبدايات القرن السادس.

قادتهم[١٠٣] ، وأن جماعات أخرى منهم قد عملت بالتجارة وجنت على عهد الساسانيين ثروات كبيرة ، بإقدامهم على إرسال سفن تجارية تعمل لحسابهم إلى منطقة القرن الأفريقى[١٠٤] ، ولهذا رحبت بيزنطة ، بل ولعبت دورا أساسيا فى أن تمد مملكة أكسوم نفوذها إلى الشاطئ الآسيوى للبحر الأحمر، بدلا من أن يقفز إليها - عبر اليهود- النفوذ الفارسى.

ولم يكن من السهل أن يغفر اليهود لبيزنطة دورها فى تدمير مملكتهم الناشئة فى جنوب شبه الجزيرة العربية، ولهذا فإنه بعد مضى أربع سنوات فقط على ذلك ، شرعوا فى تحدى الحكومة البيزنطية والخروج عن طاعتها ، عندما أعلنت جماعات السامريين اختيار جوليان Iu-lianus ملكا عليهم سنة ٥٢٩ ، وأوقعوا بالمسيحيين فى نابلس Neapolis وبيسان Scy-thopolis وقتلوا منهم أعدادا كبيرة[١٠٥]، منتهزين فرصة الحرب الدائرة يومئذ بين فارس وبيزنطة ، مؤملين أن يمد لهم الفرس يد المساعدة ، غير أن جوستنيان سرعان ما فوت عليهم هذه الفرصة بالدخول فى مفاوضات مع الفرس، وأوعز فى الوقت نفسه إلى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة الذى كان يدين بالولاء لبيزنطة ، أن يتصدى لهذا التمرد اليهودى ، ونجح الحارث ومعه القوات البيزنطية فى إخماد هذه الفتنة وإعادة الهدوء إلى فلسطين[١٠٦].

١٠٣- EUSEB hist. eccl. V. 16 .

١٠٤- هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ص٢١ حاشية ٢ .

١٠٥- لم تكن هذه هى المرة الأولى فى العصر البيزنطى ، التى يقدم اليهود فيها على إعلان مملكة لهم ، بل فعلوا ذلك من قبل على عهد الإمبراطور زينون (٤٧٤-٤٩١) واختاروا شخصا يدعى جوستوس Iustus ملكا عليهم ، واعتدوا على المسيحيين فى نابلس وقيسارية . غير أن هذه الفتنة قضى عليها بعد أن تخلص زينون من المشكلات التى واجهته فى أول عهده ، وجئ برأس جستوس وتاجه إلى الإمبراطور . أنظر .

PROCOP. Build. pp. 349-353 ; MALALAS , Chron. pp. 382-383 ; MICH. SYR. Chron II, pp. 148-149 ; Dubnov, history of the Jews, II, pp. 208-209 .

١٠٦- كانت الحكومة البيزنطية قد أصدرت على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى عدة تشريعات سنة ٤٣٨ لصالح العقيدة المسيحية ، تقضى بحرمان اليهود السامريين من الوظائف العامة ، وعدم السماح لهم ببناء معابد جديدة، أو الدعوة لديانتهم. وفى سنة ٥٢٧ وهى السنة التى اعتلى فيها جوستنيان العرش ، كان أول شئ أقدم عليه الإمبراطور الجديد، هو تجديد تشريعات الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، وأضاف إليها جواز مصادرة ممتلكات الوارثين من السامريين لصالح خزانة الدولة ، إلا أن يتحول هؤلاء إلى المسيحية . =

على هذا النحو كان جوستنيان يدرك ضرورة الأخذ على يد اليهود بشدة، حتى لايشكلوا له طابورا خامسا داخل دولته ، وعونا للفرس عليه، ومن ثم جاءت خطوته الهامة التالية ، وهى ضرب تجمع تجار اليهود فى جزيرة تيران عند مدخل خليج العقبة ، حيث كانت الجزيرة موضعا لتحصيل الجمارك فى الإمبراطورية ، وكان العائد سواء من التجارة أو حصيلة الخدمات التى تقوم عليها، تشكل دخلا وفيرا . وكانت أعداد اليهود فى هذه الجزيرة قد ازدادت بصورة تلفت الانتباه ، خاصة بعد تدمير مملكة ذى نواس وفرار عدد من اليهود اليمنيين إليها واحتمائهم بها، إلى الحد الذى دفع التجار المسيحيين فيها إلى الاحتجاج على هذه المضايقات التى يلقونها من جانب اليهود ، ولقيت هذه الاحتجاجات آذانا صاغية لدى الإمبراطور جوستنيان ، فأقدم فى عام ٥٣٥ على تدمير هذه المستوطنة اليهودية ، وقضى على نفوذ اليهود فيها، حتى يصبح الطريق التجارى البحرى من رأس البحر عند تيران والقلزم آمنا حتى مدخله فى الجنوب . وقد مثلت هذه الخطوة أهمية سياسية واقتصادية كبيرة لدى بيزنطة ، حتى أن مؤرخا مثل Sharf[١٠٧] اعتبرها تتمة طبيعية لتدمير مملكة ذى نواس فى اليمن .

وكان جوستنيان قبل ذلك ، وفى سبيل تأمين هذا الطريق التجارى، وتخليص تجارة الحرير من التبعية للفرس ، قد أرسل فى عام ٥٣١ / ٥٣٢ وفدا إلى مملكة أكسوم ، ليطلب إلى الأحباش أن يقوموا هم بشراء الحرير من الهنود ، ثم يقومون هم ببيعه للبيزنطيين، فيصبحون على هذا النحو وسطاء حلفاء ، بدلا من الفرس ، وتذهب إليهم الإرباح التى تجنيها منها فارس[١٠٨]. وقد أبدى الأحباش استعدادهم للقيام بهذا الدور ، غير أنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن الوفاء بذلك ، حيث أن التجار الفرس ، الذين كانوا قريبين من مركز تجمع

= وإذ تزامنت هذه القرارات مع ضياع أمل اليهود فى إقامة مملكة لهم فى اليمن ، بعيدا عن سلطان بيزنطة ، أقدموا على إحداث هذه الاضطرابات . أنظر

PROCOP. hist. arc. p. . 97 ; ZACH. MET. Chron . p. 232 ; MALALAS, Chron. p. 455 ; CHRON. PASCH. p. 872 ; Parkes, A history of Palestine, pp. 79-81 ; Milman, history of the Jews, pp. 224 - 225 .

١٠٧- Byzantine Jewry, p. 33 .

١٠٨- PROCOP. Bell . Pers. I, pp. 193-195 .

الحرير في سيلان ، درجوا على شراء كل شحنات الحرير القادمة من الصين ، فلم يجد تجار الأحباش شيئا يبتاعونه ، هذا بالإضافة إلى أن أهل سيلان الذين اعتادوا التعامل مع التجار الفرس منذ عهد بعيد ، لم يشاءوا الإساءة إلى هؤلاء عن طريق التعامل مع منافسيهم الجدد[١٠٩]. وهكذا ظل الفرس دون منازع ، يحتكرون هذه التجارة إلى ما بعد منتصف القرن السادس الميلادي ، حتى تمكن الإمبراطور جوستنيان ، الذي لم يفتأ يبذل المحاولات للخلاص من هذه التبعية الاحتكارية لفارس، والحصول على بيض دود القز وبذور شجر التوت ، عن طريق بعض الرهبان المسيحيين ، الذين كانوا قد توغلوا إلى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan وذلك حوالي عام ٥٥٢ للميلاد [١١٠].

غير أنه كان على بيزنطة أن تتحمل لسنوات طويلة قادمة، تحكم الفرس في هذه التجارة ، لأن الطلب البيزنطي على الحرير الصيني ، كان يزداد بصفة مستمرة ، ولم يكن بمقدور هذه الصناعة البيزنطية الناشئة أن تفي باحتياجات الإمبراطورية للحرير، لاستخدامها المتزايد له- كما أسلفنا- في الأغراض السياسية والاجتماعية على السواء، لهذا لم يكن أمام القسطنطينية والحالة هذه ، إلا أن تكثف نشاطها الدبلوماسي في الجنوب عن طريق حلفائها الأحباش ، الذين يسيطرون الآن على ساحلي البحر الأحمر عند مدخله .

وفي سبيل ذلك جدد جوستنيان سفارته برئاسة مبعوثه جوليان حوالي سنة ٥٣١ إلى ملك أكسوم وإلى «السميفع» Esimiphaeus الذي يذكر المؤرخ المعاصر بروكوبيوس ، أن الأحباش قد اختاروه ليكون ملكا على حمير ، تحت نفوذهم ، خلفا لذي نواس[١١١] . وقد أمل الإمبراطور البيزنطي من وراء بعثته هذه أن يجد تجاوبا لدى الأحباش بهدف لفت أنظار الفرس إلى تلك المناطق عن طريق جرهم إلى الدخول في مناوشات عند منطقة الخليج ، ليخفف الضغط على قواته عند الجبهة الشمالية الشرقية . وبلغت به الآمال مبلغا كبيرا عندما سعى جاهدا ليحقق تقاربا بين قوات الأحباش في اليمن والقبائل العربية في نجد ، مثل قبيلة

١٠٩- Id .

١١٠- PROCOP. Bell . Goth. II 17 وكان قد تم نقل هذه الصناعة إلى خوتان عن طريق زواج ملكها بأميرة صينية ، نقلت خلسة معها إلى مملكة زوجها دود القز وبذر التوت .

١١١- PROCOP . Bell . Pers . I . p . 193 .

«المعديين» Maddeni وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معا إلى شرقى شبه الجزيرة العربية، تهديدا للأراضى الفارسية والنفوذ الفارسى [١١٢]. ورغم الوعود الطيبة التى عاد بها جوليان إلى سيده ، إلا أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فالأحباش- بغض النظر عن كونهم لايستطيعون مواجهة الجيوش الفارسية المتفوقة عليهم عددا وعدة ، لم يكونوا راغبين أصلا فى الدخول فى حرب مع الفرس على الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية دون فائدة حقيقية ملموسة تعود عليهم، واعتبروا ذلك – على حد تعبير بروكوبيوس- صفقة المغبون ، فى الحرب[١١٣] ولم تكن القبائل العربية فى نجد بأقل من الأحباش تبصرا بنتائج هذه المغامرة غير المأمونة[١١٤] .

غير أن هذه الجهود الدبلوماسية البيزنطية المكثفة مع مملكة أكسوم وشيوخ القبائل العربية فى شبه الجزيرة ، لم تكن لتغيب عن أعين الساسانيين فى فارس ، وهم يقدرون تماما مدى خطورة امتداد النفوذ البيزنطى إلى قرب حدودهم الجنوبية الغربية . وإذا كانوا قد ضمنوا سيطرتهم الاحتكارية على طريق الحرير عبر وسط آسيا ، وحققوا نجاحا كبيرا فى استنزاف الخزانة البيزنطية عن طريق المكوس الجمركية على هذه التجارة وغيرها، والجزية السنوية التى يحصلون عليها ، فإنه لاضير أيضا أن يمدوا أصابعهم وأنفهم إلى هذه المنطقة ، حتى تكتمل حلقات الحصار الاقتصادى لأهم سلعة بالنسبة لبيزنطة فى زمانها ، حول عدوهم التقليدى الإمبراطورية البيزنطية .

١١٢- يذكر بروكوبيوس أن جوستنيان كان يظهر صداقته تجاه أحد سادات العرب يسميه «قيس» ، وقد منحه لقب Phylarchus وأراد أن ييسر له السيادة على قبائل نجد العربية ، ليمد بالتالى نفوذه إلى هذه المنطقة ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح . أنظر PROCOP. Bell . pers. I, p. 193 .

وقارن فى ذلك كوبشيانوف ، الشمال الشرقى الأفريقى ، ص٩٥-١٠٩ .

١١٣- Id .

١١٤- Kawar , Byzantium and Kinda, p. 61 ; Bury, Later Roman Empire, II, p. 325 جواد على ، تاريخ العرب القديم ، جـ٣ ص٤٧٢ - ٤٧٣ .

من هنا كان الاحتفال بإتمام ترميم سد مأرب حوالى عام ٥٤٢ / ٥٤٣ فرصة سانحة كى يسارع الفرس بإرسال وفود التهنئة إلى أبرهة ، الذى غدا الآن حاكما فعليا مستقلا بحكم اليمن ، ضمن سيادة واهنة لملك أكسوم (١١٥). وحث الفرس حليفهم ملك الحيرة ، المنذر الثالث، أن يحذو حذوهم ، ففعل . ولم تكن بيزنطة لتترك الساحة للفرس على هذا النحو، فى منطقة تعتبرها ضمن مناطق نفوذها عن طريق حلفائها ؛ فقدم وفد الإمبراطور البيزنطى إلى اليمن تحف به وفود الحلفاء ، أعنى الحارث الغسانى وأبا كارب شيخ عرب فلسطين الثالثة(١١٦). هكذا وجد أبرهة نفسه محاطا برسل أقوى دولتين فى زمانه، ومن يدور فى فلكيهما، والكل جاء يخطب وده ويرجو مودته !! مما ترك أثرا بعيدا على شخصيته ، ظهر واضحا بعد ذلك فى سياسته . لكن الذى لاشك فيه أن كلا من فارس وبيزنطة، كان يطمح فى أن يفسح لنفسه نفوذا عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . ولم يكن أبرهة نفسه بغافل عما يدور فى أذهان هؤلاء وأولئك ، وما تبديه أحاديثهم إليه ، ومن ثم أحسن استقبال الجميع ، لكن أيًا من الوعود التى قطعها على نفسه ، خاصة لمن هم على عقيدته ، لم يشأ أن يحقق منها شيئا .

١١٥- لم يستمر السميفع فى حكم اليمن تحت نفوذ الأحباش طويلا ، إذ سرعان ما ثار عليه الأحباش أنفسهم ، وأعقب ذلك الصراع بين أرياط وأبرهة، قائدى الحملة ، وتمكن أبرهة من هزيمة منافسه ، والانفراد بالسلطة. أنظر PROCOP. Bell . Pers. I, pp. 191-193 وتذكر المصادر العربية روايات طريفة حول هذه الناحية ، وهى أن ملك الحبشة عندما علم بأمر أبرهة ، أقسم أن يطأ أرض اليمن بقدمه، وأن يجز ناصية أبرهة ويريق دمه. فلما سمع أبرهة بذلك ، وضع حفنة من تراب اليمن فى وعاء ، وقص طرفا من شعر رأسه ، وسكب بعضا من دمه فى قارورة ، وأرسل بهذا كله مع رسالة إلى ملك أكسوم يحله من قسمه ، فهذه أرض اليمن ممثلة فى هذه الحفنة من التراب، ما عليه إلا أن يطأها ، وهذا دمه وشعره ، وتضيف الروايات أن ملك أكسوم أعجب بذكاء أبرهة ودهائه وحسن تصرفه ، ورضى عنه لقاء جزية سنوية يدفعها له، وبعد أن غمره بالهدايا الثمينة . أنظر ، ابن هشام : السيرة جـ١ ص٣٦ وما بعدها ، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٠٩ ؛ المسعودى مروج الذهب جـ٢ ص٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١ ص٢٥٤ .

١١٦- Philiby, The Background of Islam , p. 122 .

ولمزيد من المناقشات عن هذه السفارات راجع ، كوبشيانوف، الشمال الشرقى الأفريقى ، ص١٣٩ وما بعدها .

لقد كان أبرهة يدرك من اجتماع هذه الوفود لديه كلها فى آن واحد، رغم العداء الذى يضمره كل منهم تجاه الآخر ، أن الدخول فى لعبة صراع القوى العظمى هذه، سوف تفقده مكانته المستقلة ومركزه الذى يتمتع به، فى هذه المنطقة الحيوية لكل من القوتين ، وهو لم يتحرر من نفوذ سيده المباشر ، ملك أكسوم ، وإن كان قد أبقى على حبل ضعيف يتمثل فى الجزية ، ليقع فى أيدى الفرس أو البيزنطيين، وليدخل فى دوامة التبعية التى قد لايفيق منها أبداً ما دام الصراع قائما بين المعسكرين. ورغم أن هواه كان مع البيزنطيين بحكم العقيدة ، إلا أنه لم يغامر بإظهار العداء السافر تجاه الفرس تحسبا لقوتهم العسكرية التى يعلم أبرهة قدرها.

والغريب فى الأمر ، والذى يدعو للدهشة فى الوقت نفسه ، أن السياسة البيزنطية ساهمت، دون قصد ، على أن يسلك أبرهة هذا المسلك المتحفظ تجاهها ، بل والمستقل . فمن المعروف – كما قدمنا– أن السياسة البيزنطية كانت تعتبر الأسقف المسيحى رأس جسر طبيعى وضرورى للنفوذ السياسى للإمبراطورية ، فى أى منطقة من العالم المحيط بها، قرب أم بعد هذا العالم ، وطبقت ذلك الأسلوب باقتدار ونجاح فى مناطق كثيرة ، إلا أنها هنا سلكت – على غير عادتها– سلوكا مغايرا سبب لها بعض العراقيل فى طريق تدعيم النفوذ الذى تؤمله . وقد يبدو للوهلة الأولى من الرؤية السريعة للأحداث ، أن الدبلوماسية البيزنطية قد أصيبت هنا بقصر النظر ، لكن شيئا من ذلك ليس واردا فى عصر وصف فيه جوستنيان بأنه يعد بحق أستاذ الدبلوماسية البيزنطية[١١٧].

لقد كان الخلاف العقيدى – كما أسلفنا – قائما بين كنيسة القسطنطينية من ناحية ، وكنائس ولايات الإمبراطورية الشرقية فى سوريا ومصر من ناحية ثانية، وكانت كنيسة أكسوم تدين بما تؤمن به الأسكندرية ، وأصبح للأسكندرية منذ القرن الرابع الإشراف الرعوى على الكنيسة الحبشية ، ومن هنا توجه ملك أكسوم إلى تيموثى Timotheus الأسقف السكندرى (٥٢٠-٥٣٦) يطلب إليه أن يرسل من لدنه أسقفا ، له من المهابة ما لراعيه ، ليصحب الحملة المتجهة إلى اليمن [١١٨]، ولم يتوان تيموتى ، فأرسل على الفور أسقفا يصحبه عدد من

١١٧– راجع الفصل السابق .

١١٨– Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 59 ويحاول عرفان شهيد أن يؤكد دائما على=

القسيسين ، بهدف إعادة تنظيم الكنيسة فى اليمن بعد الأحداث التى تعرضت لها على يد ذى نواس [١١٩]. ولاشك أن هذا الأسقف كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، إلا أن فترة مكثه هناك لم تدم طويلا، إذ سرعان ما مات ، ودارت المراسلات من جديد فى سبيل الحصول على من يرعى كنيسة اليمن بدلا منه .

غير أن هذه المراسلات توقفت فجأة ، وأعلن أبرهة رفضه استقبال أسقف جديد [١٢٠]، وكان ملك أكسوم قد سلك فى الوقت نفسه ذلك السبيل [١٢١]. بل إن الأمر وصل إلى حد قتل الأسقف الذى أرسله الإمبراطور البيزنطى إلى أكسوم بعد وصوله إليها بوقت قصير [١٢٢] ولاشك أن هذا التصرف من جانب ملكى أكسوم واليمن ، يعود إلى تغيير جذرى فى السياسة العقيدية أقدمت عليه القسطنطينية .

لقد كان الإمبراطور جوستنيان يضع نصب عينيه مبدأ لايبغى عنه حولا ، يتلخص فى القول بدولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة، وفى النقطة الأخيرة ، فإنه بإيمانه المطلق لقيصرية البابوية Caesaropapism كان يعتقد يقينا بأنه وحده له الحق فى اختيار المذهب الذى تدين به رعيته . غير أن السياسات الدولية فى زمانه اضطرته فى كثير من الأحيان إلى عدم الثبات على اتجاه واحد فى المسألة الدينية. كان الإمبراطور كما يصفه المؤرخون ، آخر الأباطرة الرومان[١٢٣]، رومانى القلب والقالب . كان قلبه يهوى الغرب، لكن بصره كان معلقا بالشرق، وبين قلب الإمبراطور وبصره ، تأرجحت فى العقيدة سياسته .

= الدور السورى فى جنوب الجزيرة العربية ، ويجعله متفوقا على التأثير الحبشى ، ويعلل ذلك بعاملين : أولهما التوافق المذهبى يعنى الطبيعة الواحدة !! وثانيهما رابطة الدم التى تربط– على حد قوله– بين البيت الغسانى فى سوريا ، وبيت الحارث فى نجران ، وهو الذى كانت له الزعامة بين المسيحيين هناك حتى عهد ذى نواس . Ibid. 58

١١٩– IOAN. EPH. hist. eccl. III , pp. 323 ff .

١٢٠– Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 .

١٢١– Neale, A history of the holy Eastern Church, II, p. 36 .

١٢٢– Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history p. 142 .

١٢٣– هسى . العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ص١١٨ .

فقد أقدم جوستنيان فى أول عهده على ممالأة أصحاب الطبيعة الواحدة ، أو بتعبير أدق ، أهالى الولايات الشرقية ؛ ذلك أنه كان مقدما على الدخول فى حرب «المناوشات» مع فارس ، ومن ثم حرص على استرضاء أهالى هذه الولايات ، حتى لايسمح للنفوذ الفارسى أن يمتد إليهم، فيشكلون شوكة فى ظهره أثناء مواجهته للفرس ، حتى إذا انتهى الأمر بعقد معاهدة السلام الدائم عام ٥٣٢ ، وأمن جوستنيان - ولو إلى حين- جانب الفرس، وبدأ مشروعه الضخم لاسترداد ولايات الغرب ، أصبح فى حاجة ماسة للحصول على تأييد البابا فى روما ، حتى يضمن وقوف شعب الكنيسة الرومانية فى ولايات الغرب إلى جانبه . ولما كانت كنيسة روما تدين بالخلقيدونية ، فقد أدار ظهره الآن لكنائس الشرق ورعاياها ، وراح يعزل الأساقفة المنافرة فى القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية ، ويحل محلهم أساقفة خلقيدونيين [١٢٤].

وكان الأسقف السكندرى ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٥٣٦-٥٣٨) الذى خلف تيموثى ، ممن شملهم قرار العزل ، ليحل محله أسقف جديد يدعى بولس (٥٣٨-٥٤٢) يدين بالمذهب الخلقيدونى [١٢٥]. ولعل هذا هو الذى يفسر لنا الآن ، إقدام كل من ملك أكسوم وملك اليمن على رفض استقبال الأساقفة الخلقيدونيين الذين أرسلهم جوستنيان أو حاول إرسالهم ، وظلت كنيستا أكسوم واليمن شاغرتين قرابة خمسة وعشرين عاما [١٢٦].

ورغم أن أبرهة كتب إلى الإمبراطور جوستنيان، يطلب إليه إرسال أساقفة يكون المسيحيون هناك على استعداد للتعامل معهم، أى يدين بمذهبهم ، إلا أن جوستنيان رفض ذلك ، أو لعله

١٢٤- راجع تفاصيل السياسة العقيدية للإمبراطور جوستنيان فى :

Jones, Later Roman Empir, I, pp. 285-287, 296-298 .

١٢٥- تعاقب على كرسى الأسكندرية الأسقفى طيلة عهد جوستنيان ، عدد من الأساقفة الخلقيدونيين ، هم على التوالى : بولس (٥٣٨-٥٤٢) زويلوس Zoilus (٥٤٢-٥٥١) ، أبولليناريوس Appollinarius (٥٥١-٥٧٠) ونلاحظ أن جوستنيان ظل يحارب فى إيطاليا من أجل استعادتها حتى عام ٥٥٥ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى إسبانيا . ومن ثم كان حريصا على أن يظل فى جانب الخلقيدونية كسبا لعطف البابوية. ومن الجدير بالذكر أن المصريين كان لهم أسقفهم المونوفيزيتى خلال هذه الفترة أيضا يقيم فى حمى رهبان وادى النطرون . أنظر Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 n . 39.

١٢٦- Neale, holy Eastern Church, II , p. 36 .

راح يباطل فى تحقيق هذا المطلب (١٢٧)، رغم أنه كان مهتما جدا - كما نعلم - باستمالة مملكتى أكسوم واليمن إلى صفه للوقوف معه فى صراعه مع فارس. غير أن حلم الإمبراطور البيزنطى وطموحه لاسترداد ولايات النصف الغربى من الإمبراطورية ، أملى عليه سياسته العقيدية على هذا النحو ، مما أعطى الفرصة لأبرهة نفسه ، أن ينهج نهجا مستقلا إلى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، وإن كان هذا لم يؤد بالضرورة إلى تقطع حبائل العلاقات الودية بين القسطنطينية وصنعاء .

ولقد كان مما يعنى القسطنطينية فى المقام الأول ، أن يظل نفوذها السياسى ممتدا إلى هذه المنطقة ، وأن يبقى أبرهة حليفا ضد المدائن، بل إن أبرهة نفسه كان حريصا الحرص كله على أن تظل علاقاته السياسية والاقتصادية طيبة مع بيزنطة ، حتى يضمن وقوفها دائما إلى جانبه ، خاصة وهو يعلم أن ملك أكسوم لم يكن ليغفر له استقلاله بالأمر دونه فى اليمن(١٢٨) ، وإن كانت ظروفه العسكرية لم تسمح له بالتخلص منه. ولذا لم يترك أبرهة الفرصة لهذه الخلافات المذهبية بين صنعاء والقسطنطينية أن تؤثر فى طبيعة العلاقات بين الحليفين . بل إن بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن أبرهة ربما يكون قد قبل فى نهاية الأمر أمام إصرار جوستنيان ، وحتى لايفقد صداقته، وجود أسقف خلقيدونى فى مملكته (١٢٩).

لقد كان أبرهة يدرك تماما الأهمية الاستراتيجية التى تحتلها المنطقة التى يسيطر عليها فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية، ويعى بصورة واضحة المكانة التجارية التى تمثلها اليمن فى عالم الاقتصاد الدولى آنذاك، وبالتالى الصراع السياسى بين أكبر قوتين فى زمانه ، ورأى - كى يفلت من الدوران فى فلك أى منهما ، أن يحاول وضع قدم له بين العملاقين، وإذا كانت بيزنطة تسيطر بأسطولها فى القلزم وتيران على البحر الأحمر ، وتتحكم فارس بسفنها فى تجارة الخليج والمحيط الهندى حتى سيلان ، وبموقعها على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فلم لايقدم هو الآخر على البحث عن طريق يخضعه لسلطانه ، وهو الطريق الذى كان قائما منذ

١٢٧- Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 .

١٢٨- تخبرنا المصادر أن ملك أكسوم حاول القضاء على أبرهة والتخلص منه وإعادة اليمن إلى التبعية الحبشية المباشرة، إلا أن حملاته التى أرسلها لتحقيق هذا الهدف باءت بالفشل ، فاضطر للسكوت على مضض ورضى وإن كان دون اقتناع بالهدايا القيمة والجزية السنوية التى يرسلها إليه أبرهة . أنظر PROCOP. Bell . Pers., p. 197 وقارن حاشية رقم ١١٥ .

١٢٩- Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 27 .

زمن بعيد ، والذى يبدأ من صنعاء ويتجه شمالا ليمر بالمدن الرئيسية كالطائف ومكة ويثرب إلى دمشق ، وهو الذى يربط اليمن بعالم البحر المتوسط ، والسيطرة على هذا الطريق تحقق دون شك فائدة اقتصادية هامة للجنوب العربى .

ولاشك أن إقدام أبرهة على نقل عاصمة اليمن من ظفار (حاضرة الحميريين) إلى صنعاء التى تقع إلى الشمال ، كان خطوة على هذا الطريق، وامتد اهتمامه إلى مأرب ليعيد ترميم سدها الشهير ، ويقيم فيها قصرا وكنيسة (١٣٠). وكانت الخطوة التالية بلوغا إلى الشام، تعنى القفز على مكة ، المركز التجارى الهام لمنطقة شبه الجزيرة العربية كلها، وقبلة الحجيج إلى الكعبة بأوثانها قبل الإسلام، ومنتدى الشعراء والفصحاء والبلغاء بأسواقها الثقافية .ولم يكن الوثوب إلى مكة آنئذ بالأمر الهين أو اليسير ، فهذا يعنى أن تتوحد القبائل العربية الوثنية كلها ضد ذلك الملك المسيحى الذى يريد بهم وببلدهم وآلهتهم شرا مستطيرا ، حتى وإن لم يؤد هذا التوحد إلى احتجاج عملى حاسم، فإنه سوف يحمل فى جوهره مشاعر عدائية بالغة تجاه أبرهة، فى وقت كان هو وحلفاؤه البيزنطيون حريصين على استمالة هذه القبائل ضد عدوهم المشترك ، الفرس. وكان جوستنيان من جانبه قد سار فى ذلك خطوات واضحة واسعة، فالغساسنة يمثلون بالنسبة له، خط دفاعه الأول ضد فارس ، أو بتعبير آخر «دولة حاجزة» فى مقابل المناذرة اللخميين فى الحيرة ، الذين كانوا يلعبون الدور نفسه بالنسبة للفرس . ونادرا ما كان العداء بين القبيلتين العربيتين يتوقف حتى فى أوقات الهدنة بين فارس وبيزنطة !!

ولم يتردد جوستنيان فى أن يخلع على الحارث بن جبلة لقب الملك عام ٥٣٠ ، جزاءً الحسنى على ما أظهره من ولاء للإمبراطورية أثناء حروبها مع فارس (١٣١)، واشتراكه مع القوات الرومانية فى إخماد فتنة اليهود عام ٥٢٩ . وفعل الإمبراطور نفس الشئ أيضا مع أبى كارب بن جبلة الذى كان يسيطر على عرب فلسطين الثالثة ، والغنية جدا بنخيلها مثل تيماء ، مثلها مثل مناطق بنى كلب فى الشمال من صحراء النفود . وقد اعترف به جوستنيان حاكما معاهدا Foederatus على هذه المنطقة(١٣٢) التى تعود أهميتها أيضا إلى سيطرتها على

١٣٠- Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, P. 147 .

١٣١- بلغ من عظم شأن الحارث بن جبلة عند جوستنيان ، أنه نجح فى إقناع الإمبراطور بتعيين أسقفين من أصحاب الطبيعة الواحدة ، هما ثيودور ويعقوب على كنيستى بصرى والرها ، وهو شئ لم يفلح ملكا أكسوم واليمن فى الحصول عليه ، لتأييد الإمبراطور مذهب الطبيعتين . أنظر .

IOAN. EPH. Lives of the Eastern Saints, P. O. XIX , pp. 237 -238 .

١٣٢- PROCOP. Bell . Bers, I , XIX; hist. Arc. XI; MALALAS, Chron. XVIII .

المراكز التجارية الهامة للتجارة البيزنطية فى البحر الأحمر ، مثل ميناء الحوراء وتيران ، شأنها فى ذلك شأن تبوك وتيماء ومدائن صالح [١٣٣]. هذا كله بالإضافة إلى سعى جوستنيان لاستمالة قبائل المعديين فى نجد عن طريق استقطاب شيخهم قيس، الذين ذكرنا أمرهم آنفا .

وليس بخاف أن تجار مكة كانوا يقومون برحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام [١٣٤]، وأن هذا الأمر ، بالإضافة أصلا إلى وجود البيت الحرام ، قد رفع من قدر مكة وزعمائها القرشيين فى أعين القبائل العربية كلها، وأصبح لهم من المكانة والمهابة قدرا كريما. ومن المعروف أيضا أنهم فى رحلتهم إلى الشام كانوا يصلون إلى بُصرى ، حاضرة العربية الشمالية، بعد أن يدفعوا مكوسا معينة تسمح لهم بالمرور إلى الأراضى البيزنطية ، أو الواقعة فى فلكهم. وعلى طبيعة هذه العلاقة التجارية كانت تتوقف العلاقات السياسية ؛ إذ قد يقع الضرر أحيانا بالتجار العرب من جراء زيادة المكوس الجمركية ، لكن بيزنطة كانت تحرص دائما على استرضاء عرب الحجاز هؤلاء ، لفتح المجال للتجار البيزنطيين للمرور عبر بلادهم إلى الجنوب ، أو لاستخدام نفوذهم ومكانتهم فى نفوس القبائل لمنعهم من الإغارة على الحدود البيزنطية الجنوبية [١٣٥]. ويذكر بعض الباحثين أنه كان يوجد فى مكة بيوت تجارية بيزنطية تزاول الشئون التجارية الخاصة بالإمبراطورية ، كما كان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية ، حتى عرفت مكة بأنها «بندقية العرب» [١٣٦]، هذا بينما كان الفرس يستعينون بعرب الحيرة لحماية قوافلهم التجارية المتجهة إلى قلب الجزيرة العربية [١٣٧].

١٣٣– TRimingham, Christianity among the Arabs, p. 276 Kawar, The Arab in the peace treaty of A. D. 561 , p. 182 .

١٣٤– أكد القرآن الكريم هذه الصلات التجارية بين مكة من ناحية واليمن والشام من ناحية أخرى فى سورة قريش «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف».

١٣٥– جواد على : تاريخ العرب القديم جـ٢ ص٦٣٢ .

١٣٦– أحمد أمين : فجر الإسلام ص١٣ ؛ الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص١٠١ . ومن الطريف ما يذكره بروكوبيوس من أن أبرهة كان عبدا وإن كان مواطنا رومانيا ، وكان يعمل فى التجارة فى ميناء عدول PROCOP. Bell pers. I, p. 191 ويرجح Sellasie أنه يكون أبرهة هذا هو الممثل التجارى للملك الحبشى كالب فى هذا الميناء. راجع . Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 135

١٣٧– الحوفى، الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص١٠٠ .

وقد ساعد هذا كله زعماء مكة على عقد معاهدات تجارية مع الشعوب المجاورة ، فعقد بنو عبد مناف معاهدات لقريش ، منها مثلا ما عقده هاشم مع ملوك الشام ، وما عقده عبد شمس مع ملك الحبشة، ونوفل مع فارس ، والمطلب مع حمير ، ليفد العرب على هذه البلاد كلها[١٣٨]، لهذا كله كانت مكة تشكل بموقعها الجغرافي ومركزها الاقتصادي ومكانتها السياسية ، أهمية خاصة لدى البيزنطيين والأحباش في اليمن على السواء: فالقسطنطينية تعتبرها واسطة العقد في سلسلة مناطق النفوذ بلوغا إلى الجنوب ، بينما أبرهة ينظر إليها ضمن منطقة تهامة كلها والمنطقة الساحلية، على أنها بصورة تقليدية واقعة ضمن مناطق سيادة حكام اليمن ، من ناحية كونها ضرورية لتأمين الطريق التجاري الذي يصلهم بالشام .

لم يكن أمام أبرهة إذن والحالة هذه، إذا أراد تجنب سخط القبائل العربية، لما قد يحدثه وثوبه على مكة ، إلا أن يسلك سلوكا آخر يفضي إلى تقليص دور مكة التجاري تدريجيا ، ونقله إلى صنعاء ، وصرف أنظار العرب عنها عقيديا ببناء كنيسة في عاصمة ملكه ، يطوف العرب بها كما يفعلون عند الكعبة في مكة ، فيضمن بذلك أيضا تحويلهم إلى المسيحية. وشمر ملك اليمن عن ساعد الجد ، فابتنى كنيسة ضخمة في صنعاء[١٣٩] عرفت باسم «القليس» Al - Qullais[١٤٠] ونقل إليها بعض آثار شهداء نجران ليضفي عليها- كما للكعبة- نوعا من القداسة[١٤١]، وأصدر عددا من المراسيم يوجب بمقتضاها على العرب

١٣٨- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٨٠ ويضيف قوله : «فجبر الله بهم قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيرا من الخيرات فسمي هؤلاء الأربعة المجبرين».

١٣٩- يناقش عرفان شهيد مسألة بناء هذه الكنيسة في صنعاء ، ويقدم آراء أخرى ترى بناءها في ظفار أو نجران .. لمعرفة ذلك راجع : Shahid, Byzantium in south Arabia, p. 81

وقارن الأزرقي ، أخبار مكة جـ١ ص١٣٩ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال؛ ص٦٢ ، ياقوت ، معجم البلدان جـ٣ ص٥٧٧ .

١٤٠- هذه الكلمة تصحيف للكلمة اليونانية Ecclesia ولمزيد من التفاصيل عن وصف هذه الكنيسة ، راجع . بتلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، ص١٣٤ .

١٤١- Shahid , Byzantium in South Arabia, pp. 81-82 .

الخاضعين لسلطانه ، الحج إلى هذه الكنيسة، بينما أرسل بهذا المعنى وفودا إلى المناطق العربية الخارجة عن نفوذه ، مؤملا بذلك أن يحول الحجيج من مكة إلى صنعاء[١٤٢].

وداعبت الأحلام والآمال أبرهة فى أن ترث صنعاء مكة، وأن تحل المسيحية محل الوثنية ، متناسيا أن الصحراء العربية الواسعة وقفت حائلا منيعا أمام امتداد المسيحية إلى داخل شبه الجزيرة العربية بعد أن وقفت عند أطرافها فقط [١٤٣]. وبالتالى نجت من الوقوع تحت السيادة البيزنطية . بالإضافة إلى أن طبيعة المسيحية نفسها لم تكن تتفق فى كثير من جوانبها مع واقع الحياة القبلية عند العرب . ورغم احتكاك التجار العرب فى رحلتى الشتاء والصيف ، بالمسيحيين فى اليمن والشام ، إلا أن سادات مكة حافظوا على وثنيتهم ، لارتباطها بمركزهم السيادى بين القبائل العربية، باعتبارهم سدنة الكعبة وحماة الأرباب. ومن ثم كان أمرا دونه خرط القتاد أن تولى القبائل العربية مكة دبرها متحرفة إلى صنعاء ، حتى وإن فاقت كنيستها الكعبة بهاء وفخامة .

وأدرك أبرهة بمضى الوقت أن مشروعه الضخم هذا لن يكتب له النجاح ، وأنه إذا بقيت مكة وكعبتها، فلن تقوم لصنعاء و «قليسها» قائمة . ومن ثم فقد عزم على أن ينفذ ما كان من قبل يراوده، من القفز مباشرة على مكة للقضاء على مكانتها سياسيا واقتصاديا وعقيديا فى نفوس القبائل العربية ، وليخلو الجو لمنافستها صنعاء . هذا بالإضافة إلى أنه سوف يحقق بذلك لنفوذه امتدادا سياسيا يصله مباشرة بالممتلكات البيزنطية فى جنوب الشام وشمال

١٤٢- Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history ,p. 151 ويذكر الطبرى أن رجلا يدعى محمد بن خزاعة الزكوانى، قدم على أبرهة فى نفر من قومه ، يلتمسون فضله ، فأمّره أبرهة على مكة ، وأمره أن يسير فى الناس فيدعوهم فى جملة ما يدعوهم إليه إلى حج القليس ، فسار هذا حتى إذ نزل ببعض أرض بنى كنانة ، وقد بلغ أهل تهامة أمره ، وما جاء له، بعثوا إليه رجلا من هزيل يقال له عروة بن حياض الملاحى، فرماه بسهم فقتله وتفرق أصحابه . راجع تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٠ وأيضا تفسير الطبرى جـ٣ ص١٩٣ .

١٤٣- كانت بعض القبائل العربية مثل جذام وتغلب وعاملة على المسيحية ، لكنها مسيحية سطحية ، ولاشك أن السرعة التى اعتنقت بها هذه القبائل الإسلام ، تعد دليلا على رقة إيمانهم بالمسيحية وسطحيته . أنظر عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربى جـ١ ص٦٣ .

شبه الجزيرة . ومما لاريب فيه أن الإمبراطورية البيزنطية نفسها كانت تجد فى هذه الحملة التى يشنها أبرهة على مكة لإخضاعها لسلطانه ، خطوة فى سبيل تحقيق أهدافها بالوصول إلى الجنوب العربى عن طريق ربط هذه المناطق ببعضها ابتداء من فلسطين الثالثة ووصولا إلى أقصى الجنوب فى اليمن ، مرورا بمكة . ويعلق جواد على على ذلك بقوله : «وهكذا يحقق البيزنطيون والأحباش نصرا سياسيا واقتصاديا كبيرا ، فيتخلص البيزنطيون بذلك من الخضوع للأسعار العالية التى يفرضها الساسانيون على السلع التجارية النادرة المطلوبة ، والتى احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم، إذ سترد إليهم من سيلان والهند رأسا عن طريق بلاد العرب[١٤٤].

ورغم ما تورده المصادر العربية ، من أن قيام أبرهة بمهاجمة مكة ومحاولة هدم الكعبة ، إنما جاء انتقاما لما أوقعه أحد رجال كنانة بالقليس [١٤٥]، إلا هذا لايمكن مطلقا أن يكون سببا كافيا لهذه الحملة، حتى وإن صحت الرواية . لكن علينا أن نبحث عن هذه الأسباب فى محاولة بسط نفوذه السياسى على هذه المنطقة الهامة ، استكمالا لسيادته على اليمن واستقلاله بها عن ملك أكسوم ، ولتحقيق الرخاء الاقتصادى لدولته فى الجنوب العربى، وإسهاما فى الوقت نفسه فى تحقيق آمال حلفائه البيزنطيين بالتخلص من الاحتكار التجارى الفارسى للسلع الثمينة والهامة للإمبراطورية البيزنطية .

ولاشك أن نجاح أبرهة فى مد نفوذه إلى مكة ، ووصل ما بينه وبين ممتلكات البيزنطيين فى الشام ونفوذهم فى أقصى شمال شبه الجزيرة العربية ، كان يشكل للدولة الفارسية تحديا خطيرا من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، إذ تصبح هذه القوة الجديدة خصما مخيفا لفارس[١٤٦]

١٤٤- جواد على ، تاريخ العرب القديم جـ٣ ص٥١٧-٥١٨ .

١٤٥- تذكر المصادر العربية أن رجلا من بنى مالك بن كنانة ، أغاظه ما أغاظ العرب من بناء هذه الكنيسة ، فخرج حتى قدم اليمن، فدخل الهيكل فأحدث فيه. فغضب أبرهة وأجمع على غزو مكة وهدم البيت!! راجع ابن هشام ، السيرة جـ١ ص٤٣-٤٦ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٠ ؛ الأزرقى، أخبار مكة . ص١٣٨-١٤٠ .

١٤٦- Benjamin, Story of persia, p. 233 .

وقارن كوبيشيانوف (الشمال الشرقى الأفريقى ص١٤٧) الذى يقول إنه ليس هناك سبب مفهوم لهذه الحملة، وإن كان فى الوقت نفسه يعزوها إلى أنها تمت بإيعاز من الحكومة الفارسية وحلفائها ملوك الحيرة . وهذا رأي لايتفق مع طبيعة الأحداث .

خاصة إذا دانت القبائل العربية فى نجد والمناطق المجاورة لها على ساحل الخليج بالسيادة للبيزنطيين والأحباش [١٤٧]، ولهذا كانت فارس تنظر بعين الحذر الدائم، والقلق والترقب ، لكل ما يجرى حولها فى منطقة شبه الجزيرة العربية .

غير أن الحملة الضخمة التى قادها أبرهة بنفسه إلى مكة ، ووفر لها الاستعدادات العسكرية الضخمة ، وجلب لها الأدلاء تيسيرا للمسيرة فى دروب لايعرفها ، أصيبت بالفشل، وحققت إخفاقا كاملا[١٤٨] ولم ينج من جيش أبرهة الضخم إلا النذر اليسير ، حتى أبرهة نفسه ما لبث أن مات ، وقد تقطعت أكباده فرقا وحزنا على هذه الخسارة الفادحة التى منى بها ، وعلى ضياع آماله وطموحاته ! ولم يكن لدى البيزنطيين آنذاك القدرة على مد يد العون له، كما حدث عند الغزو الحبشى لليمن ؛ فقد كانت بيزنطة غارقة حتى آذانها فى مشاكل حدودها مع جيرانها التى لاتنتهى أبدا[١٤٩] بالإضافة إلى الاستنزاف المادى الذى كانت تتعرض له من جراء الجزية الذهبية السنوية التى تقدمها لفارس . وقبل هذا كله كانت الدوائر العسكرية البيزنطية تضع نصب عينيها الإخفاق الذى حاق بالحملة الرومانية التى قادها والى مصر آيليوس جاللوس فى نهايات القرن الأول قبل الميلاد ، بسبب الطبيعة الجغرافية القاسية لهذه المناطق . ورغم ما اعترى بيزنطة من خيبة الأمل لفشل هذه الحملة الحبشية، إلا أن آمالها هناك لم تخبُ أبدا .

١٤٧- كانت هناك بعض الصلات بين المنذر الثالث ملك الحيرة ، وجوستنيان، فقد حصل المنذر فى بعض الأحيان على الجزية من الإمبراطور البيزنطى ، وكان قادرا على التعامل معه دون تدخل الملك الفارسى، بل إن هناك مراسلات دارت بين المنذر وجوستنيان كان واضحا منها أن جوستنيان يحاول استخدام دهائه الدبلوماسى لاستمالة المنذر إلى صفه أو على الأقل زعزعة الثقة بينه وبين الملك الفارسى، وقد وقعت بعض هذه المراسلات فى يد كسرى أنوشروان مما أفقده لبعض زمن، الثقة فى ملك الحيرة . أنظر PROCOP. Build. p. 163, hist. arc. p. 50; Trimingham , Christianity among the Arabs, p. 198 .

١٤٨- يربط المفسرون المسلمون هذه الحملة وفشلها بمولد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، ويطلقون على هذا العام عام الفيل ، ويستدلون على ذلك بخبر أصحاب الفيل الذى ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول» . وتختلف الروايات فيما بينها ، وبين القدامى والمحدثين حول السنة التى وقعت فيها هذه الحملة . وليس هنا مجال الخوض فى مثل هذه الآراء.

١٤٩- هسى ، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد ص٢٤٩ .

على أن أهم ما في الأمر ، أن هذا الفشل، إنعكس بصورة واضحة على الوجود الحبشي نفسه في الجنوب العربي، وبالتالي المصالح البيزنطية ؛ فقد خلف أبرهة ولداه يكسوم ومسروق على التوالي، ولم يكن لأيهما شخصية أبيه. فوقعت اليمن في الفوضى وشهدت الكثير من الاضطرابات ، وبدأت القبائل العربية في الجنوب ، والتي لم تكن راضية أصلا عن هذا الغزو الحبشي المسيحي لليمن ، ترفع رأسها مثيرة العقبات في وجه ولدي أبرهة . ولم تكن الحبشة في وضع يسمح لها باستعادة نفوذ لها كان قد حرمها منه أبرهة .

وهكذا سمحت وقائع الأحداث لواحد من أذواء اليمن ، ينتمي لأسرة عريقة ، هو سيف بن ذي يزن ، أن يعمل فكره في كيفية استغلال هذه الفوضى السياسية والضعف العسكري للوجود الحبشي في اليمن ، للتخلص من هذا الاحتلال. ولم يكن الرجل بغافل عن لعبة الصراع الدولي بين فارس وبيزنطة حول المنطقة ، ولذا رأى هو الآخر، كما رأى نواس الحميري اليهودي، وكما فعل المسيحيون في نجران من قبل ، ضرورة الاستعانة بإحدى هاتين القوتين العظميتين لتحقيق أهدافه .

والذي يلفت الانتباه ، تبعا لما ورد في المصادر التاريخية ، أن سيف بن ذي يزن ، قد التجأ في أول الأمر إلى الإمبراطور البيزنطي ليساعده في طرد الأحباش من اليمن ، غير أن الإمبراطور رفض ، وكان طبيعيا أن يرفض هذا المطلب، متعللا بأنه يتفق والأحباش في العقيدة ، ومن ثم فلا يمكنه تحقيق ما جاء من أجله الزعيم اليمني [١٥٠]. وقد يبدو هذا الأمر غريبا لأن سيف بن ذي يزن كان يعلم بالعلاقات التي تربط بين الإمبراطورية البيزنطية والأحباش . ويقدم أحد الباحثين اليمنيين رأيا طريفا لتفسير هذا الذي أقدم عليه سيف، فيقول: «إنه عندما ذهب وجهاء القوم إلى قيصر الروم ، لم يكونوا ينوون حقيقة الاستعانة بهم، لعلمهم مسبقا أنه مسيحي يناصر الأحباش ، وإنما كان الهدف تخفيف الضغط ومساومته بالخداع وتقليل مساعدته للأحباش على أقل الأحوال »، ويضيف : «واليمني ذكي بالطبع، عالم بمجاري السياسة ونتائجها ، فلايغامر مغامرة كهذه غير عارف بمصائر الأمور»[١٥١].

١٥٠- ابن هشام ، التيجان في ملوك حمير ص٣١٥، السيرة جـ١ ص٦٥؛ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٤ وما بعدها؛ المسعودي، مروج الذهب جـ٢ ص٨٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ جـ١ ص٢٦٣ .

١٥١- محمد الأكوع الحوالي ، اليمن الخضراء ص٤١٩ .

لكن المسألة لاتبدو بهذه البساطة المفرطة التى يفترضها الباحث اليمنى، فليس من المنطقى أن يضيع الزعيم اليمنى وقته وينفق جهده عبثا ، من أجل أن يخفف من تأييد البيزنطيين للأحباش ، فى وقت كان فيه البيزنطيون لايملكون الرغبة وليس عندهم الاستعداد ، أن يقذفوا بجزء من جيوشهم العاملة على الحدود الطويلة، الساخنة أبدا ، إلى هذه الأراضى البعيدة بجغرافيتها الصعبة، وحملة آيليوس جاللوس ماثلة أمام ناظريهم كما أشرنا ، بالإضافة إلى أن إدارة الخارجية البيزنطية باتت مقتنعة تماما أن الأحباش فى اليمن أمسوا فى موقف لايحسدون عليه بعد هزيمة أبرهه عند مكة وموته ، وأن دورهم فى هذه المنطقة قد تقلص ولم تعد له قيمة تذكر .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات هى التى تجعلنا نختلف فى الرأى تماما مع الباحث اليمنى صاحب هذا الرأى ، ونذهب مباشرة إلى القول بأن التجاء سيف بن ذى يزن إلى الإمبراطور البيزنطى ، جاء بوعى كامل لما يفعله ، وإدراك حقيقى لطبائع الأمور . فما دام التخلص من النفوذ الحبشى الاجنبى لن يتم – على الأقل فى تلك الظروف – إلا بالاستعانة بإحدى المعسكرين، ضمن لعبة الصراع بين القوى العظمى على مناطق النفوذ ، والتى لابد أن سيفا كان يدرك أبعادها تماما ، إذن فمن الأجدى ، بل ومن الطبيعى ، أن يستعين بصاحب المصلحة الحقيقية والمباشرة فى المنطقة ، أعنى البيزنطيين . وإذا كان للفرس اهتماماتهم الكبيرة بما يجرى ليس بعيدا عن حدودهم الجنوبية الغربية ، وما يمثله من أهمية اقتصادية تدعم سيادتهم الاحتكارية على طرق التجارة الذاهبة إلى بيزنطة ، إلا أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعتبر هذه المنطقة جزءاً حيويا وهاما جداً فى صراعها مع فارس ، سياسيا واقتصاديا ، لايقل أهمية عندها عن لازيقا أو ايبريا أو أرمينيا .

فاليمن – بغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة ، إلا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، وصولا إلى مصر، أهم ولايات الإمبراطورية آنذاك من الناحيتين السياسية والعسكرية، ناهيك طبعا عن الناحية الاقتصادية ، إذ كانت «قبو الحنطة» أو «صومعة الغلال» بالنسبة للقسطنطينية [١٥٢]، وهى ليست عن طموحات الفرس ببعيد،

١٥٢– للوقوف على خطورة هذا الأمر فى السياسة البيزنطية عندئذ ، راجع رأفت عبد الحميد ، مصر والعرش البيزنطى ، بحث منشور ضمن كتاب مصر والبحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٥ .

ولن تفتأ فارس تسعى لضرب بيزنطة فيها ، حتى تحقق لها ذلك فى بدايات القرن السابع الميلادى، خلال السنوات الأولى من عهد الإمبراطور البيزنطى هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١). ومن ثم كانت المصالح البيزنطية فى اليمن، لاتقف عند حد الأهمية الاقتصادية ، التجارية بصفة خاصة، أو امتداد النفوذ السياسى فى الصراع مع فارس ، بل لكونها كما ذكرنا توا، مفتاح البحر الأحمر من الجنوب وصولا إلى «مخزن الغلال» فى شماله .

لهذا لم يكن غريبا أن يذهب سيف بن ذى يزن إلى الإمبراطور البيزنطى يرجو عونه فى طرد الأحباش ، فى مقابل أن يتعهد هو نفسه بحماية المصالح البيزنطية فى المنطقة . وهذا هو ما يقوله ابن هشام بالحرف الواحد ، حيث يذكر «أن سيف بن ذى يزن قدم إلى قيصر الروم يشكو إليه ظلم الأحباش ويغنيه بالسيادة على اليمن»[١٥٣] والعبارة الأخيرة لاتدع مجالا للشك فى أن سيفا فعل ذلك وهو يعلم تماما حقيقة المصالح البيزنطية فى المنطقة. ولعل هذا هو الذى يفسر طول مُكثه فى القسطنطينية ، والذى امتد قرابة سبع سنوات ، إذا صحت رواية المسعودى[١٥٤] مؤملا أن يستجيب الإمبراطور لمطلبه ، وليس من المستبعد أيضا أن تكون القسطنطينية نفسها هى التى تعمدت استبقاء الزعيم اليمنى مقيما فيها طيلة هذه السنوات، وذلك أسلوب شاع استخدامه كجزء أساسى من قواعد الدبلوماسية البيزنطية، مع زعماء الشعوب والدول والقبائل الذين يفدون إلى العاصمة البيزنطية يخطبون ودها. إلا أن الإمبراطور البيزنطى، رغم اقتناعه- كما نفترض - بوجهة نظر سيف بن ذى يزن، إلا أنه لم يشأ أن يمد له يد عونه، ليس كما يذهب البعض[١٥٥] بسبب العلاقات بين فارس وبيزنطة نتيجة توقيع معاهدة السلام الأخيرة ، لأن فارس نفسها لم تحترم هذه المعاهدات عندما تحول إليها سيف مستنجدا ، ولكن لما فصلناه سابقا من ظروف بيزنطة وسياستها .

وجد سيف بن ذى يزن نفسه مضطرا إذن أن يولى وجهه شطر القوة الكبرى الأخرى ، فارس[١٥٦]، وتمكن مؤخرا من الحصول على عون كسرى أنوشروان الذى أمده بقوة عسكرية

١٥٣- ابن هشام ، السيرة جـ١ ص٦٥ ؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢ ص١١٥ .

١٥٤- المسعوى ، مروج الذهب جـ٢ ص٨٠ .

١٥٥- Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history , p. 157 .

١٥٦- وقد جاء فى الحوار الذى دار بين سيف بن ذى يزن وكسرى أنوشروان، قول سيف : «... أيها=

قادها وهرز Wahriz ، تمكنت من هزيمة «مسروق» وقضت على قوة الأحباش باليمن . وكتب القائد الفارسي إلى سيده يخبره بذلك، فبعث إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، وفرض كسرى على سيف جزية سنوية وخرجا يؤديه إليه فى كل عام ، وكتب إلى وهرز أن ينصرف إليه [١٥٧]. ولاشك أن هذه السياسة التى اتبعها الفرس فى اليمن ، وعودة قائدهم بقواته إلى فارس ، تضيف دليلا قويا على صدق ما ذهبنا إليه الآن عن ذهاب سيف بن ذى يزن إلى إمبراطور بيزنطة أولا . فهو الآن أمسى تابعا لفارس يؤدى إليها جزية سنوية ، وكان على استعداد أن يلعب نفس الدور مع بيزنطة ، صاحبة المصلحة الحقيقية فى المنطقة ، من أجل التخلص من الاحتلال الحبشى. ولو لم تكن فارس على يقين بأن بيزنطة غير راغبة وغير مستعدة للتصدى لها عسكريا ، لفكرت كثيرا قبل أن تقدم على هذا العمل العسكرى ضد الأحباش حلفاء بيزنطة.

بل لقد ذهبت فارس إلى أبعد من ذلك عندما أقدمت على الاحتلال الفعلى لليمن وتوابعها وضمها إلى دائرة نفوذها وسلطانها تماما ، بعد مقتل سيف بن ذى يزن ومحاولة الأحباش استرداد نفوذهم ثانية[١٥٨]. ولم يأت الفرس هذه المرة بدعوة من أحد ، إنما جاءوا بدوافع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، وليحققوا بذلك كسبا هاما فى هذه المنطقة الحيوية ، دون أن يلقوا مقاومة من جانب الإمبراطورية البيزنطية ، ولتظل لفارس السيادة هناك حتى ظهور الإسلام ، وقيام الدولة الإسلامية قوة جديدة من القوى العظمى فى عالم العصور الوسطى، ودخول اليمن ضمن شبه الجزيرة العربية كلها تحت السيادة الإسلامية .

= الملك: غلبتنا الأغربة على بلادنا ، فجئتك لتنصرنى عليهم، وتخرجهم عنى، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم». أنظر الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ص١١٦ .

١٥٧- الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١١٧ .

١٥٨- أقدم بقايا الأحباش على الانتقام من سيف بن ذى يزن ، باعتباره السبب فى القضاء على ملكهم هناك، ومن ثم دبروا أمرا اغتياله ، ونجحوا فى ذلك ، مما أدى إلى عودة القائد الفارسى وهرز ثانية إلى اليمن ومعه أربعة آلاف جندى، وكانت الأوامر الصادرة إليه تقضى بقتل كل الأحباش هناك حتى المولدين منهم. وقد أدى ذلك إلى هروب أعداد منهم إلى مكة حيث لعبوا دورا بارزا فى الحياة العسكرية والاجتماعية من بعد.

هكذا قدر لفارس أن تكسب الجولة قبل الأخيرة ، من جولات الصراع بينها وبين بيزنطة حول شبه الجزيرة العربية ، بعد استباق طويل بينهما للسيادة عليها اقتصاديا وسياسيا ، أخذ من القرن السادس الميلادى ما نيف على نصفه ، حتى إذا أدرك بيزنطة الضعف ، وبلغ منها الجهد مبلغا كبيرا بعد وفاة جوستنيان عام ٥٦٥ ، وبفعل سياسته ، إغتنمت فارس الفرصة المواتية ، واستولت عسكريا على كل ساحل الجنوب العربى ، وبلاد العرب السعيدة ، ولتمسى هذه المنطقة الهامة ، واقعة تحت السيادة الفارسية. إلا أن ذلك لم يقدر له أن يستمر طويلا بفضل الفتح الإسلامى لليمن. ولن تلبث القوة الإسلامية الناشئة أن تصطدم بالقوتين العظميتين فارس وبيزنطة ، وأن تقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية ، وأن ترث بذلك العداء التقليدى - كقوة عظمى- تجاه الإمبراطورية البيزنطية .